البرتو مورافيا

الاحتقار

رواية

تقديم ومراجعة
علي صلاح الدين

الكتاب: الاحتقار (رواية)

الكاتب: البرتو مورافيا

تقديم ومراجعة: علي صلاح الدين

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

مورافيا، البرتو

الاحتقار / البرتو مورافيا، تقديم ومراجعة: علي صلاح الدين

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢٦ ص، ١٨*٢١ سم.

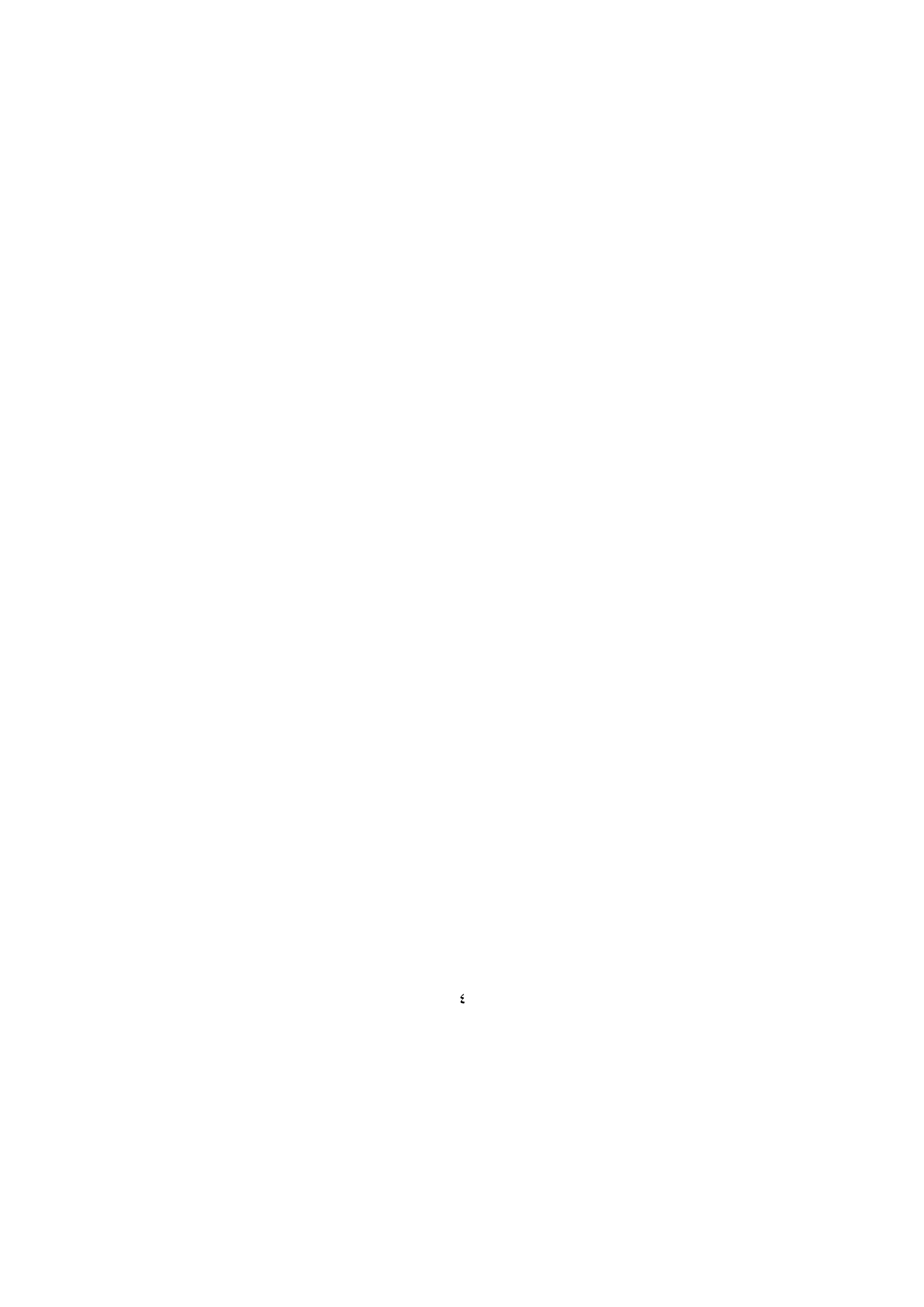
الترقيم الدولي: ٨ – ٢٩٩ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٩٤١٣ / ٢٠٢١

الاحتقار

رواية





تقديم

سئل الروائي الإيطالي الأشهر ألبرتو مورافيا ذات مرة: "هل أنت نادم لأنك لم تفعل بعض الأمور أو لم تخض بعض التجارب في حياتك؟". فأجاب بسرعة، "لا، أنا لست نادماً على شيء، وذلك بكل بساطة لأن كل حياة إنما تساوي أي حياة أخرى، وأيضاً لأن بإمكاننا أن نرى في نهاية المطاف أن كل الحيوات إنما هي حيوات مخففة. الحياة ليست سوى عدم كبير لا يمكننا أن نخرج منه إلا ببعض بقايا نظام غامضة وشديدة السرية".

ومع ذلك، حين سئل عن تصوره للكيفية التي سيكون عليها عالم المستقبل، قال: "أنا، في نهاية الأمر، متفائل. أعتقد أن الإنسانية بالكاد خرجت حديثاً من طفولتها. وهي اليوم، لذلك، تعيش مرحلة المراهقة. أما مستقبلها فما هو إلا مستقبل العلم والتطبيقات التكنولوجية التي لا يزال في وسعها أن تقلب العالم رأساً على عقب. ومع هذا، صحيح كذلك، أن المراهقة في الحياة هي مرحلة أزمة عميقة وأن عالمنا يمكنه أن يفنى حتى من قبل أن يصل إلى كامل شبابه".

هذا التراوح بين التفاؤل والتشاؤم، وهذه الحيوية الجدلية وهذه البساطة في التعبير لم تطبع، فقط، ما كان البرتو مورافيا يصرح به في آخر أيامه، بل طبعت كذلك أدبه كله، ما جعل لأدبه شعبية لم تضاهها

شعبية أي أديب أوروبي آخر في طول القرن العشرين وعرضه. وحتى لئن كانت شعبية أدب كاتب إيطاليا الكبير قد جعلت دهاقنة جائزة نوبل يغضون الطرف عنه دائماً، فرشح للجائزة ثلاث عشرة مرة ولم يفز بها أبداً!

وقد برر نقاده ذلك بأن البساطة التي تطبع رواياته كانت من النوع الخادع. إذ غالباً ما كانت الحياة بأعماقها تلوح ظاهرة من خلال أدب كان يبدو للوهلة الأولى بسيطاً، أو على الأقل، ميلودرامياً في ملامسته لمواضيعه. من هنا كان شعار باحثي أدب البرتو مورافيا على الدوام يتلخص في عبارة تقول، "لكنه، بعد كل شيء، ليس الكاتب الذي تعتقدون".

مورافيا

البرتو مورافيا الذي رحل من عالمنا عام ١٩٩٠، ولد عام ١٩٠٧ في روما، وعرف الشهرة باكراً وبشكل مفاجئ منذ روايته الكبيرة الأولى "اللا مبالون" التي نشرها وهو في الثانية والعشرين من عمره، ولكنها لم تكن مع ذلك عمله الأول، إذ كان قد نشر قبلها مجموعة شعرية بعنوان "١٨ قصيدة" يقال كتبها حين كان في الثالثة عشرة من عمره.

يقول مورافيا عن صباه إنه انطبع بداءين أصاباه وهو بعد في أولى سنوات وعيه: سل العظام الذي أصابه يافعاً واضطره للمكوث سنوات طويلة في مصحات التيرول عاجزاً عن الحركة، والفاشية التي بدأت تغزو

إيطاليا منذ العشرينيات وتحاول أن تحطم لها روحها. ومن الواضح أن وعي مورافيا (وكان اسمه الحقيقي بينكرلي) قد اكتمل عبر رد فعله على ذينك الداءين، وهو ما جعل كل أدبه التالي يُكتب كرد فعل على صدمهما للجسد والروح. والحال أن الشغل الشاغل لمورافيا طوال حياته الأدبية كان الرد على هاتين الصدمتين المبكرتين. أما النجاح الذي كان من نصيب "اللامبالين" فشجع مورافيا على الإمعان في الكتابة، فراح يصدر طوال سنوات الثلاثين والأربعين كتبه التالية بادئاً بالطموحات الخائبة و"تربيع الأقنعة" وصولاً إلى "الحياة الجميلة" (١٩٣٥) وهو الكتاب الأول الذي عرف فيه مورافيا كيف يصور سقوط المجتمع المخملي في روما خير تصوير، فاستبق بذلك نظرة فلليني الثاقبة إلى المجتمع نفسه، مع ما في نظرتي الفنانين من لمسات سخرية ناقدة مشتركة.

ليس من اليسير بالطبع إحصاء كل ما كتبه مورافيا، ولكن يمكن الإشارة إلى أبرز أعماله، ومنها ما نقلته السينما ومعظمه ترجم إلى شتى لغات العالم ومنها اللغة العربية بالطبع، ومنها، "العصيان" و"الحب الزوجي" و"امرأة من روما" ثم بخاصة "اللا ممتثل" التي نقلها برتولوتشي إلى فيلم سينمائي حمل الاسم نفسه ويعد من أجمل إنتاجات السينما الإيطالية، وإلى "امرأتان" التي أشرنا إليها هنا وحولها "دي سيكا" إلى فيلمه المتميز، كان هناك بالطبع، "حكايات رومانية" ثم "الاحتقار"

و"السأم" وغيرها. إضافة إلى رواياته تمرس مورافيا في أدب الرحلات، وتدخل في القضايا السياسية وأمضى آخر سنوات حياته يناضل في سبيل البيئة وضد انتشار السلاح النووي، هو الذي غلب على شخصيات أدبه طابع اللامبالاة والحياد السلبي والرغبة المخبوءة في تدمير العالم وصياغة علاقات لا تستجيب للنظم الاجتماعية.

وقد قال ناقد إنجليزي كبير عن أدب مورافيا: "إن مورافيا صاحب أدب وجودي عبثي، روعته أن وجوديته وعبثيته لا تظهران إلا للمنقبين بدقة". وكان من الغريب أن المنقبين لم يكونوا كثراً، على عكس القراء الذين كانوا منتشرين في العالم ويقرأونه بلغته الإيطالية الجميلة، ولكن أيضاً مترجماً إلى عدد كبير من اللغات متوخين المتعة أكثر من الفهم. وهم لو توخوا التعمق كانوا سيجدون المتعة مضاعفة بالتأكيد. يشعر القارئ لمورافيا بالغرابة ونوع من التشتت ولا بد، والسبب في ذلك هو انطلاقه من رؤية فلسفية فريدة وغريبة. مزيج من الفلسفات جمعها الكاتب في عقله وساهمت في تشكيل وجدانه ثم بدأ يكتب ويسطر تجلياتها في سطور كتبه ورواياته.

فالقراءة لمورافيا هي أشبه ما تكون بمشاهدة جلسة تحليل نفسي. كاتب عبقري في كتاباته، وخصوصًا في المقالات العصرية وقتذاك. ومنها أيضًا ما يزال مناسبًا للسقوط على واقعنا المعاصر. يضيف مورافيا بعض الإضافات التي تزيد من واقعية الواقع بطريقة تبعثك على الانتباه والتعجب.

الاحتقار

يصور مورافيا في رواية "الاحتقار" حياة اجتماعية جرت وقائعها في إيطاليا. ترتكز على زوجين تفاوتت ثقافتهما، وكيف يطيح شعور الاحتقار بالحب بين الزوجين وكأنه نوع من الأحماض يصيب أحد المعادن فيجعله في النهاية يتآكل حتى لا يبقى منه شيء.

السرد في الرواية ذو إيقاع بطيء حيث يكشف الراوي عن الحكاية تصاعديا وببطء شديد، مستهلكا جزءا كبيرا من الرواية في تحليلاته وأفكاره التي يفرضها فرضا على الأحداث، مما يغلب على السرد كثرة الأفكار أكثر من جريان الأحداث، كما تبدو شخصية اميلي باهتة رغم أنها البطلة، والرواية لا تعتمد على التشويق وإنما على تقديم البطل ورؤاه وأفكاره وشخصيته، وفرض آراؤه وأحكامه على الشخصيات،

والراوي هنا هو ريشار الذي لا يكف عن مسائلة ذاته وتحليل الأمور نفسيا، ومراجعة الأفكار، لكنه راوي متسلط لا يترك الحرية لاميلي لتتحدث عن نفسها، كما لا يترك الحرية لباتيستا للتعبير عن نفسه أيضا إلا في حدود ضيقه، فصوت ريشار ووجهة نظره هي الغالبة على الرواية وهي أقرب إلى السلطوية، والرواي في بعض المواضع في الرواية يخاطب القراء بشكل مباشر.

يتسم الراوي بحس طبقي متعال، فهو يصف زوجته، والتي صرح مرارا أنه يحبها حبا شديدا، بأنها أقل منه طبقيا، واصفا إياها بالبرجوازية الصغيرة، وموضحا أنها لم تكمل تعليمها ووصلت إلى التعليم الابتدائي ثم اضطرت

إلى العمل ككاتبة على الآلة الكاتبة بسبب الفقر، رغم أنها متحدرة من عائلة عريقة لكنها فقدت أموالها وأصبحت فقيرة، ويروي ذلك في تعالي وكأن فقرها يحسب عليها وأنه دليل على عدم تكافؤ بينهما، كما يكرر كثيرا أنه اضطر للتخلي عن أحلامه في أن يصبح كاتب مسرح ناجح، ولجأ إلى العمل ككاتب سيناريو لدى منتج جشع لا يهمه سوى الربح، إرضاء لزوجته التي كان أقصى حلم لها أن تمتلك بيتا تعيش فيه، ورغم أنها عاشت معه لمدة عامين في غرفة مفروشة في شقة، إلا أنه شعر أنها ترغب في امتلاك شقة خاصة بها، وجازف واشترى شقة بالتقسيط رغم أنه ليس لديه مال، مما اضطره إلى الاستدانة ومن ثم العمل ككاتب سيناريو لأفلام تجارية، كما أنه اشترى لها أيضا سيارة وضحى بأحلامه لأجلها.

ويتلخص الخلاف الذي جعل اميلي تفقد حبها لزوجها بل ويتحول هذا الحب إلى الاحتقار في أن باتيستا كان يحاول إغواءها وكان يفرض وجوده فرضا، ورغم ذلك لم يتخذ "ريشار" أي موقف ضد ذلك، بل كان يتجاهل ما يحدث ويفرض على زوجته أن تصحبه في لقاءاته مع باتيستا، موضحا أنه لم يكن يعلم أن باتيستا سيء النية وأنه حين أعاد التفكير في تحول زوجته وبعد إعادة تدوير أفكاره مرات ومرات، وصل إلى تلك الفكرة وهي أن باتيستا كان يغويها وأنه وقف متجاهلا، حتى أنه بدا أمام زوجته متواطئا وكأنه يدفعها دفعا لأن تكون عشيقه باتيستا، لكنه يفسر ذلك الأمر بأنه لم يكن ينتبه، وأن كل اهتمامه كان منصبا على الفوز

بالعمل الذي لايرضيه، ليحصل على المال ليسدد أقساط الشقة والسيارة، حتى انه لم ينتبه لكل ذلك، وحتى إلى تغير زوجته إلا بعد فترة.

حالة النفور والعداء بين الزوجين تنتقل من الخفاء إلى العلن، هذا يبدو جلياً من خلال محاولات الزوج ترك زوجته وحدها مع المنتج الذي يرغب فيها جنسياً، بل ويشجعها على مرافقة المنتج. عندما يدعوهما إلى مسكنه، نرى الزوج يقودها إلى مقعدها في سيارة المنتج ليستقل هو سيارة أجرة. من هذه اللحظة يصبح احتقار الزوجة له مكشوفاً وجلياً.

لكن الأسوأ من احتقار زوجته له، إحساسه هو بكراهية نفسه، الذي لا يبدو جليــاً وصريحاً، بل هو كامن، ويتجلى في ارتيابه وعدم ثقته بزوجته وهو الأمر الذي يجعله يتنازل عنها لصالح المنتج.

في موازاة الصراع بين الزوج والزوجة، نشهد صراعاً آخر بين المنتج والمخرج الذي هو في جوهره صراع بين الفن والتجارة، بين المثل الكلاسيكية والابتذال والسوقية. إنهما يمثلان النقيضين أخلاقياً وثقافياً، المخرج يريد أن يخلق فيلماً يأسر به فخامة وعظمة الإغريق، ويبرز فيه الصراع البطولي حسب ما ورد في الأوديسة، بينما المنتج، الذي يمثّل القوة الأيديولوجية يريد فيلماً يدغدغ غرائز الجمهور. وعلى الرغم من دفاع المخرج عن رؤيته ومقاومته لضغوطات المنتج، إلا أنه يبدو شخصية أخلاقية وغير فعالة أو مؤثرة.

علي صلاح الدين

الفصل الأول

كانت علاقتي بزوجتي أميلي خلال العامين الأولين من زواجنا أحسن ما يكون، لقد كانت تبدو لي بلا نقائص على الإطلاق.. وقد كنت أبدو كذلك في نظرها أو أنني ربما كنت أرى عيوبها وترى عيوبي.. ولكن بفضل الحب، كانت تلك العيوب تبدو لنا كلينا مغتفرة، كما لو أنها بدلا من أن تكون نقائص، كانت مزايا من نوع خاص.. وبالاختصار كنا متحابين وسأروي هنا كيف أن أميلي ظنت أنها تكشف عددا من عيوبي، فاحتقرتني.. وبالتالي كفت عن أن تحبني.

وقد يبدو غريبا أنني خلال هذين العامين لم أكن أحس بسعادتي. فإذ كنت أحب زوجتي وكنت محبوبا منها، كنت أحس أني أفعل كالجميع، وكأن هذا الحب يبدو لي واقعة مشركة، عادية، من غير أن يكون فيها شئ ثمين بصورة خاصة، كالهواء الذي نتنشقه والذي ليس هو عظيما ولا يقدر بثمن إلا حين نفتقده.

ففي ذلك الحين لم أكن أملك السعادة. لأنني إذ كنت أحب زوجتي وتستجيب هي لحبي لم أكن أملك طمأنينة الغد. فقد كنا لا نكاد نقوم بأودنا من منتهى العاقة كناقد سينمائي في جريدة يومية من الدرجة الثانية.. كنا نعيش في غرفة مؤثثة تابعة لمؤجر شقق مفروشة.. وكان المال غالبا ما ينقصنا للنفقات الإضافية وحتى أحيانا للضروري. فألى لي، والحالة هذه، أن أكون سعيدا؟.

وفي نهاية هذين العامين من حياتنا الزوجية، تحسنت ظروف حياتنا فقد تعرفت على منتج أفلام يدعى بايتستا.. وكتبت لحسابه سيناريو فيلم.. وهو عمل كنت أعتبره آنذاك مؤقتا، ولكنه أصبح منتهى. على أن علاقاتي باميلي، في الفترة نفسها، بدأت تتغير على نحو مؤسف. والحق إن حكايتي تبدأ تماما بأول عهدي. ككاتب سيناريو.

وإذا رجعت بذاكرتي إلى مجرى الزمن أراني أتخيل حادثا صغيرا بدا لي ساعة وقوعه تافها.. ولكنه كان يحمل أهمية حاسمة بالنسبة لحياتنا الزوجية التي أصابها البرود.

إنني أتمثلني على رصيف شارع من شوارع وسط المدينة. وكنا، أنا وأميلي وباتيستا، قد تناولنا العشاء في المطعم، وقبلنا اقتراح باتيستا بإنهاء السهر في بيته. وها نحن الثلاثة أمام سيارة باتيستا، وهي سيارة حمراء أنيقة مترفة، ولكنها ضيقة وذات مقعدين فقط. وجلس باتيستا أمام عجلة القيادة، ثم انحنى وفتح الباب وهو يقول:

– آسف يا مولتيني، ليس لدي إلا مقعد واحد.. فعليك أن تصل إلى بيتي بوسائلك الخاصة.. إلا إذا كنت تفضل أن تنتظرني هنا، ففي هذه الحالة، سأعود لاصطحابك.

وكانت اميلي إلى جانبي، وهي ترتدي ثوبا من الحرير الأسود، عاري الكتفين وبلا أكمام، وهو الثوب الوحيد الذي تملكه، ونظرت إليها، فلاحظت أن جمالها المطمئن الهادئ في العادة قد نعكر بحيرة

وقلق، بنوع من الاضطراب الغريب. وقلت بمرح:

– إذهبي إذن يا اميلي مع باتيستا.. وسألحق بكما في سيارة أجرة.

فنظرت إلى اميلي، ثم أجابت بلهجة مغتصبة:

– أليس من الأفضل أن يسبقنا باتيستا، ونستقل سيارة أجرة؟

وهنا أخرج باتيستا رأسه من باب السيارة وهتف مازحا:

– هذا لطيف! إنكما تريدان أن تتركاني وحدي!

فأجابت اميلي: لا، ولكن..

ولاحظت فجأة أن وجهها الجميل، الهادئ المنسجم عادة، قد أظلم وبدأ متحللا ببلبلة تكاد تكون مؤلمة. ولكني كنت قد نطقت بعبارتي:

– إن باتيستا على حق، فهيا، اذهبي معه. وأنا سآخذ سيارة.

إنني إذ أكتب هذه السطور، يعاود ذاكرتي إحساس جديد.. فعندما جلست زوجتي إلى جانب باتيستا، وكان الباب ما يزال مفتوحا، رمتني بنظرة تحمل في وقت واحد التردد والرجاء والانزعاج. وقد تجاهلت ذلك، وأغلقت باب السيارة.. وأقلعت بهما. فاتجهت إلى أقرب محطة لسيارات الأجرة.

ولم يكن بيت المنتج بعيدا عن المطعم، وكان المفروض أن أصل بعد باتيستا توا، إن لم يكن في الوقت نفسه. ولكن حادث اصطدام وقع

وأنا في منتصف الطريق، عند أحد المفارق. فقد تصادمت السيارة التي استقلها مع سيارة خاصة، فأصيبتا كلتاهما بأضرار.. وترجل السائقان وتناقشا، ثم تشاتما، وأسرع الناس إليهما، وتدخل شرطي ليفصل بينهما في مشقة، ثم أخذ أسميهما وعنوانيهما. وفي هذه الأثناء، ظللت أنتظر في السيارة من غير نفاد صبر، تكاد تغمرني الغبطة، لأني كنت قد أكلت وشربت جيدا، وكان باتيستا قد عرض علي في نهاية العشاء أن أشارك في سيناريو فيلمه. وفي هذه الأثناء، كان الحادث وما تلاه من مناقشات قد استغرق ربع ساعة، فوصلت منزل المنتج متأخرا.

وإذ دخلت غرفة الاستقبال، رأيت اميلي جالسة على أريكة، مشتبكة الساقين، وباتيستا وافقا في ركن من القاعة، أمام بارفال. وقد حياني بجذل، أما اميلي فقد سألتني بلهجة شاكية عما فعلته طوال هذا الوقت. وقد أجبت في استخفاف بأنه قد حصل لي حادث صغير. وأحسست من نظرة اميلي إلي بأنني أتهرب من سؤالها كما لو كان لدي ما أخفيه.. وسألتني بجفاء: حادث؟ أي حادث؟

فدهشت لذلك، بل تنبهت. ورويت ما حدث. غير أني أعطيت هذه المرة أكثر مما ينبغي من التفاصيل: فكأني كنت أخاف ألا أصدق. ولكن اميلي لم تهتم بذلك.. ووضع باتيستا، وهو يفيض ودا وابتسامات، ثلاثة أقداح على الطاولة ودعاني إلى الشرب. وجلست، ومرت ساعتان ونحن نثرثر ونتبادل المزاح، ولاسيما أنا وباتيستا. وكان هو من فرط

الجذل والتدفق بحيث لم ألاحظ تقريبا أن اميلي لم تكن كذلك. والحق أنها، لحيائها، ذات طبيعة أقرب إلى الصمت والانغلاق، ولهذا لم أدهش لتحفظها.

على أني مع ذلك استغربت بعض الشئ ألا تشاركنا حديثنا، على الأقل بالبسمة والنظرة، على مألوف عادتها، إنها لم تبتسم، ولم تولنا نظرة، واكتفت بأن تدخن وتشرب في صمت، كما لو أنها كانت وحدها.

وفي آخر السهرة، حدثني باتيستا حديثا جديا عن الفيلم الذي ينبغي أن أشترك فيه، فروى لي موضوعه، وأعطاني معلومات عن المخرج وعن زميلي السيناري، وانتهى بدعوتي إلى زيارته في مكتبه في اليوم التالي لتوقيع عقدي. وانتهزت اميلي فرصة لحظة الصمت التي تبعت هذه الدعوة لتنهض وتقول إنها متعبة وراغبة في العودة إلى البيت.

فأستأذنا باتيستا في الذهاب وهبطنا وحين خرجنا إلى الشارع، مشينا من غير أن نتبادل كلمة حتى محطة السيارات، فاستقللنا سيارة انطلقت بنا. وكنت قد جننت فرحا من اقتراح باتيستا الذي لم أكد آمله، ولم أستطع الإمتناع عن أن أقول لاميلي:

– إن هذا السيناريو يأتي في أوانه! فلست أدري كيف كنا نستطيع الاستمرار في الحياة.. كنت سأجبر على اللجوء إلى الاستدانة.

وجوابا على ذلك، اكتفت أميلي بأن سألتني:

– ما هو المبلغ الذي يدفع لقاء وضع سيناريو؟

فذكرت لها رقما وأضفت:

– ها هي مشكلاتنا قد حلت، لهذا الشتاء على الأقل.

وأمسكت يدها، ولم تنطق بعد ذلك بكلمة حتى بلغنا البيت.

الفصل الثاني

بعد تلك السهرة جرى كل شئ على ما يرام، بالنسبة لعملي. ففي اليوم التالي قصدت مكتب باتيستا، فوقعت العقد وقبضت الدفعة الأولى من أصل الأجر.. وفي اليوم نفسه، اجتمعت أول اجتماع بالمخرج.

إنني لا أستطيع أن أحدد بالدتة الوقت الذي بدأت فيه علاقاتي مع زوجتي تتسمم.. لاسيما وأن اميلي لم تظهر طوال فترة أخرى من الزمن أي تغير في مسلكتها معي. ومن المؤكد أن هذا التغير قد تحقق خلال الشهر الذي تبع تلك الأمسية العتيدة.

كنا في تلك الفترة نرى باتيستا يوميا.. وأود أن أسجل هنا أنه في كل مرة كان باتيستا يدعونا فيها كانت اميلي تظهر بعض الاستياء في أن تصحبني. صحيح أن مقاومتها لم تكن قوية ولا مصممة، ولكنها كانت ثابتة ثباتا غريبا في تعبيراتها وتبريراتها. فلكي لا تصحبنا كانت دائما تجد عذرا ما لا علاقة له ألبتة بباتيستا.. وكنت ألح لكي أعرف إذا لم يكن العذر الحقيقي كراهية لباتيستا، وكانت تجيب على سؤالي بظل من التبرم، إنها لم تكن تكره باتيستا، وإنما كانت ترغب ألا تخرج معنا، لأن هذه الأمسيات كانت تتعبها، وتسئمها.

وإذ كنت أطمئن كل الاطمئنان إلى عواطفها تجاه باتيستا. كنت

أحرص على أن أفسر لها الأسباب التي تجئ في صالح مشاركتها إيانا في أمسياتنا، فحتى ذلك الحين، لم أكن قد خرجت قط بدونها، وكان باتيستا يعرف ذلك.. كان يسره أن يراها، لأنه كان كلما دعاني يقول:

– إنك بالطبع ستصحب زوجتك..

وكان يمكن اعتبار هذا الغياب اللامنتظر والذي يصعب تفسيره إحتقارا أو حتى إهانة نحو باتيستا الذي كانت حياتنا متوقفة عليه بعد الآن، لذلك كنت أقدم لها أسبابا عديدة وممتازة لحضورها.. وأنه من الحكمة أن تتحمل التعب والسأم.

وكانت اميلي تصغي إلى حججي – دائما – بتنبه حالم فكأنها كانت مهتمة ببراهيني أقل من اهتمامها بوجهي وحركاتي. ثم إن الأمر كان ينتهي بها دائما إلى الاستسلام لرأيي، وتبدأ في صمت بارتداء ثيابها تمهيدا للخروج.

لقد سبق أن قلت أنني بنيت هذا كله من جديد فيما بعد وأنا التمس التماسا دائبا في ذاكرتي إثر وقائع كانت تافهة آنذاك وقد حدثت في حينها من غير أن تسترعي انتباهي. وكل ما لاحظته في تلك الفترة هو تغير مزعج في مسلك أميلي نحوي، وقد أخذت أفكر بأن زوجتي كانت تحبني أقل من السابق لأني لم أعد أجدها قلقة على ألا تتركني كما كان يحدث في العهود الأولى من زواجنا. فإذا كنت أقول لها آنذاك:

– إن على أن أخرج، وسأتغيب ساعتين.

لم تكن لتحتج، كانت مستسلمة، ولكن وجهها الذي كان يغشاه الظل كان ينم عن الأسى الذي تخلفه غيبتي. حتى أني غالبا ما كانت أعدل عن الخروج، وأتحرر كما أستطيع من موعدي المضروب، أو أنني كنت، إذا استطعت، أصحبها معي.

وقد كان تعلقها شديدا جدا حتى أني ذات يوم وقد صحبتني إلى المحطة التي كنت أغادها في رحلة قصيرة إلى إيطاليا الشمالية، رأيتها في لحظة الوداع تدير رأسها لتخفي الدموع التي كانت تملأ عينيها. ومنذ ذلك الحين كففت عن السفر بدونها.

أما الآن، فإذ أبلغنا نبأ سفر ما، فإنها بدلا من أن أرى وجهها الحبيب تغشاه غشاوة خفيفة من الانزعاج والحزن، تكتفي بأن تجيبني في هدوء، وغالبا من غير أن ترفع عينها عن الكتاب الذي تقرأ فيه.

– حسنا.. سنلتقي ثانية عند العشاء، فلا تتأخر.

بل كانت تبدو أحيانا وكأنها راغبة بأن تمتد غيبتي إلى ما بعد توقعي.

كنت أقول لها مثلا:

– علي أن أخرج، وسأعود في الساعة الخامسة.

فتجيبني:

– أبق في الخارج ما حلا لك، فلدي، من جهتي، ما أعمله.

وذات يوم نبهتها بلهجة خفيفة إلى أنها تبدو وكأنها تفضل غيابي، ولكنها أجابتني في حيوية بأني ما دمت على نحو أو آخر مشغولا معظم النهار في الخارج، فقد كان يجب علينا أن نكتفي باللقاء في ساعة الغذاء أو العشاء. ولم يكن هذا صحيحا فإن عملي كسيناريست لم يكن يجبرني على الخروج إلا بعد الظهر، غير أنني، منذ تلك اللحظة، أخذت أخرج كذلك في الصباح.

وفي العهد الذي كانت اميلي تبدي فيه استياء من غيابي، كنت أتركها خفيف القلب، مسرورا حقا بهذا الاستياء كما لو أنه برهان إضافي على الحب العظيم الذي كانت تحمله لي. ولكن منذ أن لاحظت أنها لم تكن تكتفي بعدم إظهار أي حزن، بل كانت تبدو وكأنها تفضل وحدتها، بدأت استشعر ضيقا أصم، كمن يحس الأرض تميد تحت قدميه.

كنت أخرج الآن كل صباح، كما سبق أن ذكرت، بالإضافة إلى خروجي بعد الظهر لأجل عملي، وذلك لا لغاية أخرى إلا لأتثبت من لا مبالاة أميلي الجديدة، تلك اللامبالاة التي كانت شديدة المرارة بالنسبة لي وسعيت أول الأمر إلى أن أتعزى من هذه البرودة بإقناع نفسي بأن الحب، مهما كان رقيقا، يحل محله العادة بعد عامين من الزواج، وأن وثوق كل من الزوجين من أنه محبوب من الآخر، ينزع من الحب أي طابع حماسي في علاقات هذين الزوجين.

ولكني كنت أشعر بأن ذلك لم يكن صحيحا، فقد كنت أحس بأن

أميلي قد كفت عن الشكوى من تغيبي، لا لأنها كانت تعتبره لازما، بل لأنها كانت تحبني أقل من ذي قبل، أو كانت لا تحبني بعد. ومع ذلك، فلابد أن يكون قد حدث شئ ما قد غير عاطفتها التي كانت من قبل ملتهبة جارفة.

الفصل الثالث

عندما تعرفت على باتيستا للمرة الأولى، كنت في وضع على غاية الصعوبة، ولم أكن أدري كيف أخرج منه. كنت قد اشتريت شقة بالتقسيط، من غير أن أعرف الطريقة التي بها أستطيع أن أسدد الأقساط. وكنا خلال عامين قد سكنا غرفة كبيرة مؤثثة في بيت مفروش.

وقد كان جديرا بإمرأة غير زوجتي أن تشكو من إقامة مؤقتة كهذه الإقامة، أما أميلي، فأعتقد أنها إذ قبلتها، قد قدمت لي أنصع دليل حب تستطيع امرأة أن تعطيه زوجها. كانت أسرتها فقيرة وكانت هي نفسها، حين تعرفت عليها، ضاربة على الآلة الكاتبة. وأعتقد أنه كان في حبها ذاك لبيتها تعبير غير واع للأماني المكتومة التي يحس بها الأشخاص المحرومون من الإرث، العاجزون أبدا عن امتلاك مسكن لهم، مهما بلغ من التواضع.

ولست أدري إن كانت اميلي، حين تزوجتني، قد راودها وهم تحقيق آمالها البورجوازية، ولكني أذكر أن من المرات النادرة التي رأيتها تبكي فيها هي حين أعترفت لها، بعد خطوبتنا بقليل أني لم أكن أملك وسائل تقديم مسكن لها حتى بالأجرة، وأن علينا في البدء أن نكتفي بغرفة مفروشة. وكانت تلك الدموع، التي سارعت بوضع حد لها، تعبر، كما بدا لي، عن خيبة مريرة من أن ترى حلما كان قد راودها طويلا يرجأ إلى المستقبل.

وإذن، فقد عشنا خلال هذين العامين في غرفة مفروشة، ولكن أي نظام دقيق وأية نظافة أشاعت اميلي فيها! كان المرء يشعر أنها كانت تعمل في حدود الممكن – وقد كانت هذه الحدود ضيقة في غرفة مفروشة، لمنح نفسها وهم التملك.

وبسبب من نقص الأثاث الشخصي، كانت تريد على الأقل أن تضفي على هذا الأثاث البائس روحها البيتية المنظمة. كان مكتبي مزدانا دائما بالزهور، كانت أوراقي مرتبة في حب، وموضوعة بشكل موحٍ كما لو أنها تدعوني إلى العمل.. ولم يكن أي ثوب أو حاجة أخرى ملقاة على الأرض أو على كرسي، كما نرى غالبا في المساكن الضيقة المؤقتة.

لقد كانت أميلي، بعد ضربة المكنسة الأولى لربة البيت، تخضع الغرفة لتنظيف آخر، أطول وأدق، ليصبح كل شئ لماعا حتى ليستطيع المرء أن يتمرى فيه..

وفي الصباح كانت أول من يستيقظ. فتذهب لإعداد الفطور في مطبخنا الصغيرة وتحمله لي بنفسها من غير أن تثير التنبه.

ومع ذلك، فإن الغرفة المفروشة، رغم جهودها المؤثرة، كانت تظل غرفة مفروشة، ولم يكن الوهم الذي كانت تسعى إلى اكتسابه وإلى إكسابي إياه، كاملا أبدا. وإذ ذاك، بين الفينة والفينة، في لحظات التعب والاستسلام، كانت تشكو بتلك العذوبة وتلك الدعة اللتين هما طبعها العميق، وهي تسألني بمرارة واضحة إلى متى يظل هذا الطراز من الحياة

المؤقته الوضيعة. وقد كنت أحس في تلك الرغبة المعبر عنها باعتدال ألما حقيقيا، فأعاني من التفكير بأن علي عاجلا أو آجلا أن أحققها لها قبل أن يأتي يوم ينفذ فيه صبرها.

وقررت أخيرا، كما ذكرت، أن أشتري شقة، وكنت قد وضعت في هذين العامين، بعض المال جانبا، واستطعت من جهة أخرى أن أستدين مبلغا أتاح لي أن أدفع القسط الأول. وإذ فعلت ذلك، لم أكن أحس بالشعور اللذيذ الذي يحس به رجل يؤمن منزلا لزوجته الشابة.. كنت قلقا لأني لم أكن أتصور على الإطلاق كيف سأتدبر الأمر بعد بضعة شهور، حين يستحق دفع القسط الثاني.. وكنت أحس ما يشبه الحقد على اميلي التي كانت حماستها الدائبة قد أجبرتني على أن أتصرف تصرفا غير حكيم.

ولكن فرحة أميلي الكبرى بهذه الشقة والعواطف الغريبة بنوعها وكثافتها والتي أيدتها أول مرة زرنا فيها الشقة جعلني أنسى ضيقي ردحا من الزمن.. وأضيف هنا أن هذه العاطفة قد بدت لي في ذلك اليوم، مرتبطة ومختلطة بالشهوانية، كما لو أن منحي إياها شقة قد جعلني في عينيها، ليس أجدر بالحب وحسب، بل كذلك، وبمعنى جسدي، أقرب وأشد صميمية.

كنا قد ذهبنا نرى الشقة، فاكتفت أميلي أولا بأن تعبر الغرف الباردة العارية، وفيما كنت أشرح لها مهمة كل من هذه الغرف ومشاريعي

المتعلقة بترتيبها. واقتربت من إحدى النوافذ أفتحها لأرى زوجتي المنظر الذي تشرف عليه، دنت أميلي مني والتصقت بي، وطلبت مني بصوت خافت أن أعانقها. وكان هذا لديها، هي المتحفظة عادة والحيية تقريبا في علاقاتنا الغرامية أمرا جديدا غاية الجدة وهاجني هذا الجديد بالإضافة إلى رنة صوتها فضممتها كما كانت تطلب.

ولكن فيما كانت قبلتنا تتعمق، شعرت بأن جسدها يزداد التصاقا بجسدي، ثم نزعت (جونلتها) بحركة مفاجئة، وفكت أزرار قمصها وتمددت لصقي وحين افترقت شفاهنا، تمتمت في أذني، في نفس لم يكد يبين:

– خذني!

وكان ثقل جسدها كله يجرني نحو الأرض. وقمنا بفعل الحب على البلاط المغبر. على أنني استشعرت في حمية تلك الضمة العجيبة شيئا آخر غير الحب الذي كانت أميلي تحسه في تلك اللحظة نحوي، كانت في تلك الضمة المستهلكة على الأرض المغبرة، إنما تستسلم للمواهب، لا للزواج، وإن تلك الغرف العارية المصدية قد حركت في أعمق أحشائها شيئا لم تستطع مداعباتي حتى ذلك الحين أن توقظه.

وانقضى شهران قبل انتقالنا إلى الشقة.. جمعنا فيها الأثاث القليل الذي مكنتني وسائلي المحدودة من شرائه.. وإذ انقضى سروري الأول، كنت أحس – كما سبق أن قلت – قلقا من المستقبل. كنت طبعا

أكسب ما يتيح لنا أن نعيش بتواضع وأدخر بعض المال جانبا، ولكن هذه التوفيرات لم تكن كافية لتسديد القسط الثاني من ثمن الشقة.

وكانت خيبتي من المرارة أني لم أكن أستطيع تخفيفها بمصارحة أميلي التي لم أكن أريد أن أفسد فرحتنا.. ولكني لم أستطع الامتناع عن التفكير بأنها لم تكن تهتم قط بمعرفة الطريقة التي أتمكن بها من الحصول على هذا المال كله، بالرغم من أنها عرفت وضعنا الواقعي معرفة عميقة.

وكانت هذه الفكرة تؤلمني بغموض، وتوحي لي أحيانا ببعض الحنق إزاءها هي التي لم تكن الآن – في انهماكها وفرحها – تفكر إلا بالتنقل بين الحوانيت بحثا عن أشياء تنقص البيت.

وكانت تبلغني كل يوم، بأهدأ لهجة تملكها، عن أثاث جديد قد اشترته. وكنت أتساءل كيف أنها، هي التي تحبني ذلك الحب الكبير، لم تكن تحدس بالهموم الفظيعة التي كانت ترهقني. لقد كانت تفكر على الأرجح بأني ما دمت قد اشتريت تلك الشقة، فلابد أني تدبرت الأمر للحصول على المال اللازم. ولكن هدوءها وفرحها، المتناقضين مع ألوان قلقي البائسة، كانا يبدوان لي علامة عدم الاحساس.

كنت من شدة الانهماك والهم بحيث أن الصورة التي كنت أكونها عن نفسي قد تغيرت. كنت حتى ذلك الحين اعتبر نفسي مثقفا، وكاتبا للمسرح، وهو نوع من الفن كنت قد غذيت له دائما حماسة كبيرة،

انتظارا للمجد الأدبي ولكن هذه الصورة الملأى بالسحر والوعود انزاحت في تلك الفترة من حياتي لتحل محلها صورة أخرى مختلفة كل الاختلاف، هي صورة إنسان مسكين، لم يستطع أن يصمد لحبه لزوجته فتصرف تصرفا أعمى، وهو يوشك أن يضطر إلى التخبط فترة لا يعلم إلا الله مداها في أهوال الفاقة المميتة.

إنني لم أكن بعد عبقري المسرح الشاب بل الصحفي الجائع، المحرر في المجلات والجرائد الثانوية، أو ربما – وهذا أسوأ – المستخدم المسكين في إحدى المؤسسات الخاصة كان ذلك الرجل يخفي عن زوجته –حتى لا يقلقها – همومه بالذات، وكان طوال النهار يعدوا في المدينة بحثا عن عمل. أما في الليل، فقد كان يستيقظ مذعورا وهو يفكر في ديونه..

وفي آخر الأمر التقيت بمصادفة بدت لي محاطة بالعناية الآلهية، تعرفت بباتيسنا الذي عرض علي، كما سبق أن رويت، أن أعمل في سيناريو فيلمه. وتعزيت فترة من الزمن، وكنت مسرورا كما لم أكن منذ فترة طويلة، وكنت أؤمل أن أؤلف أربعة سيناريوات أو خمسة لأسدد ثمن الشقة ثم أعود بعد ذلك إلى الصحافة وإلى مسرحي المفضل.

وكنت قد استعدت حبي لأميلي أقوى من أي وقت مضى، غير أن هذا الانقشاع كان قصير المدى. فإن سماء حياتي ما لبثت أن تلبدت. ولم يكن الأمر، في البدء، سوى غيمة صغيرة، ولكن ما كان أشد ظلامها!

الفصل الرابع

بعد لقائي مع باتيستا بأسبوع، كنا نقيم في منزلنا الجديد. ولم تكن هذه الشقة – التي هي سبب هذه المتاعب كلها – لا كبيرة ولا باذخة. كانت تتألف من غرفتين: قاعة جلوس واسعة، طويلة أكثر منها عريضة، وغرفة نوم لا بأس بمساحتها. وبالمقابل، كان الحمام والمطبخ وغرفة الخادمة. وكانت الشقة قائمة في الطابق الأخير من بيت ذي بناء حديث، بواجهة بيضاء، يقع في شارع صغير ذي انحدار خفيف.

وتسلمنا الشقة بعد الظهر، وكان لدي عمل طول النهار، وقد نسيت أين تناولنا العشاء ومع من. وكل ما أذكره أني قرابة منتصف الليل كنت واقفا في وسط غرفة النوم، أنظر إلى نفسي في المرآة ذات الوجوه الثلاثة وأحل ربطة عنقي. وفجأة، رأيت في المرآة أن أميلي تتناول وسادة من على سريرنا وتتوجه نحو غرفة الاستقبال، فسألتها مندهشا:

– ماذا تفعلين؟

تكلمت من غير أن أتحرك، فرأيتها تتوقف وتلتفت وهي تقول:

– لن يغضبك أن أنام هناك على الديوان؟

فقلت مذهولا، غير فاهم بعد:

– هذه الليلة؟

فأجابت بسرعة:

– لا، بل دائما، ابتداء من الآن. والحقيقة أني من أجل هذا كنت أرغب في تغيير المسكن.. إنني لا أريد بعد أن أنام والنافذة مفتوحة، كما تريد أنت. فلا أستطيع النوم، وأظل طول النهار مملوءة الرأس بالنعاس.. إنني أعتقد أن من الأفضل أن ينام كل منا على حدة.

كنت مشدوها، أمام هذا التدبير الجديد غير المنتظر. وقلت لأميلي:

– ولكن هذا مستحيل.. ليس لدينا إلا غرفتان، وسريرنا هذا، تلك الأرائك والديوان.. إن النوم على الديوان، غير مريح إطلاقا.. وإنك حتى الآن لم تعلني أية شكوى، وقد كنت أحسب أنك تعودت..

– إنني لم أتعود قط، بل كان نومي مؤرقا دائما.

وقطعت كلامها، ثم خطت خطوة نحو غرفة الاستقبال، فأمسكتها قائلا:

– انتظري، إن بوسعي إذا شئت، أن أعدل عن النوم والنافذة مفتوحة.. لقد اتفقنا.. فابتداء من اليوم، سنغلق النافذة.

ولم يكن هذا العرض من جهتي هزيمة ودودة فحسب، فالواقع أني كنت أريد أن أضع أميلي في التجربة. وقد رأيتها تهز رأسها وتجيب ببسمة خفيفة:

– ولكن لا.. لماذا تتحمل هذه التضحية؟ لقد قلت لي أنك كنت تختنق حين تكون النافذة مغلقة.. فمن الأفضل أن ننفصل ليلا.

– أؤكد لك أن هذه ستكون تضحية صغيرة جدا.. سوف اعتاد.

فبدت مترددة، ثم قالت بتصميم لم أكن أتوقعه:

– لا، إنني لا أريد أية تضحية، سأنام في غرفة الاستقبال.

– وإذا قلت أنا لك أن هذا يسؤوني، وإني أريد أن أنام معك!

فترددت من جديد، ثم قالت بلهجة مصالحة:

– حقا.. كيف ذلك يا ريشار؟ إنك لم ترد أن تقوم بهذه التضحية منذ عامين، حين تزوجنا.. وها أنت الآن تريد أن تقوم بها بأي ثمن.. فماذا يمكن أن يؤثر ذلك عليك؟. إن هناك كثيرا من الأزواج ينامون منفصلين، من غير أن يضعف الحب بينهم..

وخرجت من الغرفة، من غير أن تصغي إلى أكثر من ذلك وبقيت وحدي، جالسا على السرير الذي كان، بوسادته الوحيدة، قد بدأ يوحي بالفراق والهجر، وظللت حالما أنظر بشرود إلى الباب المفتوح الذي خرجت منه أميلي.

وخطر لذهني سؤال: "إذا لم تكن أميلي تريد أن تنام معي بعد، أبسبب ضوء النهار الذي يزعجها، أم لأنها ببساطة لم تكن تريد بعد أن تقاسمني فراشي؟"

وفيما كنت مستغرقا في أفكاري، تاركا عيني تزوغان في الغرفة، كانت أميلي تروح وتجئ، حاملة إلى غرفة الاستقبال الوسادة وزوجا من الشراشف المطوية سحبته من الخزانة، وغطاء، وثوب نومها. وكنا في مطلع الصيف، ولما كانت الحرارة لطيفة، فقد كانت أميلي تتجول في البيت بثوب شفاف.

الفصل الخامس

إنني لم أصف أميلي بعد، وسأفعل الآن ذلك، حتى ولو لم يكن القصد إلا أن أشرح عواطفي تلك الليلة.

لم تكن أميلي طويلة القامة، ولكني بسبب العاطفة التي كنت أكنها لها، كانت تبدو لي أكثر طولا ومهابة من جميع النساء اللواتي سبق أن لقيتهن.. وكان كتفاها وذراعاها وعنقها أجمل ما رأيت في حياتي، ممتلئة، أنيقة، لدنة في حركاتها. وكان لها وجه أسمر ذو أنف مرسوم بدقة وبشكل صارم، وفم ريان، رطب، ضاحك بأسنان ذات بياض مشع كان يبدو دائما رطبا براقا، أما عيناها الكبيرتان بلونهما الكستنائي المذهب وتعبيرهما الشهواني فقد كانتا، في لحظات الاستسلام، زائغتين مسترخيتين

صحيح إن أميلي لم تكن آية في الجمال، ولكنها كانت تترك أثر من كان كذلك لست أدري لماذا؟ ربما بسبب مظهرها الفخور الملئ بالاعتزاز، أو ربما بسبب قوة ساقيها الطويلتين المنشوقتين والصلبتين في وقت واحد.

والحال أني في ذلك المساء، بينما كانت تروح وتجئ من الغرفة إلى الصالون وأنا أتأملها بعيني من غير أن أدري ماذا أقول، مغتاظا ومرتابا

في الوقت نفسه، كانت أنظاري تنتقل من وجهها الهادئ إلى جسمها الذي كان يبرز خلال غلالة القميص لونها، استداراتها بين الفينة والفينة وفجأة هاجم فكري الشك في أنها لا تحبني بعد، مع الشعور بعجز التماس والاتصال بين جسمها وجسمي.

ولم يسبق لي أن أحسست بمثل هذا الشعور وظللت لحظة دائخا بذلك، غير مصدق. إن الحب بالتأكيد وقبل كل شئ إحساس، ولكنه كذلك اتصال للأجسام شبه روحي، اتصال كنت قد تمتعت به بلا وعي تقريبا، كما لو أنه شئ عادي وطبيعي تماما. وإذ رأيتها متغيرة هذا التغير، كان الخوف يأخذني أن أكون بعد الآن غير قادر على أن أحبها بتلقائية الماضي وطبيعته.

في هذه اللحظة، مرت أميلي بقربي وقد عادت إلى الغرفة. فانحنيت فجأة وأمسكتها من ذراعها:

– تعالي هنا، أريد أن أكلمك..

فكان رد فعلها الأول أن ابتعدت عني، ثم ما لبثت أن استسلمت وأقبلت تجلس على السرير، ولكن بعيدا عني بعض الشئ:

– تكلمني.. ماذا تريد أن تقول لي؟

لماذا أصاب حلقي المنقبض ضيق مفاجئ؟ ربما كان ذلك بسبب الخجل، وهو شعور كان حتى ذلك الحين غائبا عن علاقاتنا، وكان ظهوره يبدو لي وكأنه يؤكد التغير المفاجئ.

قلت:

– نعم، أريد أن أكلمك، فإن لدي شعورا بأن شيئا ما قد غيرك.

فرمتني بنظرة جانبية وأجابت بوثوق:

– إنني لا أفهمك.. أي تغير؟ أنا لم أتغير.. إنني مازلت إياي.

– لقد كنت في الماضي تحبينني أكثر من ذلك.. كنت تشعرين بالأسف حين كنت أتركك وحدك.. ثم أنه لم يكن يزعجك أن تنامي معي.. بل على العكس!

فهتفت، ولكني لاحظت أنها فقدت بعض وثوق لهجتها:

– آه! من أجل هذا! كنت أعرف جيدا أنك تفكر بشئ من مثل هذا.. ولكن لماذا تستمر في تعذيبي هكذا؟ إنني لا أريد أن أنام معك لأني بكل بساطة أريد أن أنام، وإني لا أتوصل إلى ذلك وأنا بقربك، هذا كل ما في الأمر!

كنت أحس الآن بحججي ومزاجي السئ تذوب سريعا وتنحل كالشمع إذا ما لامس النار. وكانت أميلي بقربي وهي بذلك القميص المثير، الخفيف، الذي كان يشف عن ألوان جسمها.وكنت أن أشتهيها وأجد من الغريب ألا تحس ذلك، وألا تصمت، وألا ترتمي على عنقي، كما كان يحدث في السابق كلما كانت نظراتنا المهتاجة تلتقي. وقلت لها بصوت خافت.

– إذا لم يتغير شئ فاثبتي لي ذلك!

– ولكني أثبته لك كل يوم، في كل ساعة.

– لا، أقصد الآن..

وفيما كنت أتحدث ملت عليها فأخذتها بعنف تقريبا من شعرها بحثا عن شفتيها، فاستسلمت بوداعة، ولكنها في اللحظة الأخيرة تحاشت قبلتي بحركة خفيفة من رأسها، بحيث أن فمي وقع على عنقها. وتركتها:

– ألا تريدين أن أقبلك؟

فتمتمت وهي ترتب شعرها في لامبالاة:

– ليس الأمر كذلك، فلو لم تكن إلا قبلة لمنحتك إياها طوعا.. ولكني أعرف إلى أين سيقودنا هذا، وقد تأخر الوقت الآن..

فأحسستني مهانا بهذه الطريقة في الصرف باللجوء إلى العقل.

– هذه الأمور لا تعرف تأخيرا في الوقت إطلاقا:

وإذ حاولت أن أقبلها من جديد بجذبها إلي من ذراعها، أطلقت صرخة:

– آي! إنك تؤلمني!

لم أكن قد فعلت أكثر من أن أمسها، وقد كنت في أوقات حبنا

أضمها أحيانا بين ذراعي بقوة من غير أن أتنزع منها أدنى تنهدة.

قلت مغتاظا:

– في الماضي، لم أكن أؤلمك!

فأجابت:

– إن لك يدين من حديد، وأنت لا تحس بذلك.. وسوف يترك هذا أثرا في ذراعي..

قالت ذلك كله في ما يشبه الخدر، من غير أن تدلل، وفجأة ألححت بقولي:

– قولي لي إذن أتريدين أم لا أن تمنحيني هذه القبلة؟

فانحنت ولامست جبيني بقبلة أموميه خفيفة وهي تقول:

– خذ. ودعني الآن أذهب للنوم. إن الوقت متأخر.

ولم يكن هذا يكفيني، فإذا بيدي الاثنتين تقبضان عليها من قامتها، عند خاصرتيها، وقلت بينما كانت ترتد إلى خلف:

– أميلي.. ليست هذه هي القبل التي أريدها منك..

فدفعتني وكررت بلهجة عدائية حقا:

– آي! دعني، إنك تؤلمني!

– هذا غير صحيح، غير صحيح!

هذا ما تمتمت به بين أسناني وأنا أرتمي عليها.وفي هذه المرة تخلصت بفضل حركتين أو ثلاث، بسيطة وقوية، وقفزت على قدميها، ثم قالت بلا أية حشمة:

– إذا كنت تريد أن تقوم بفعل الحب، فلنفعله.. ولكن لا تؤلمني.

لبثت منقطع الأنفاس. وكان صوتها هذه المرة مثلوجا، متبذلا، ولم أستطع أن أمتنع عن التفكير بذلك، من غير ظل لعاطفة. وظللت لحظة جامدا، وأنا جالس على السرير، مشتبك اليدين، خافض الرأس.

وجاءني صوتها من جديد:

– ما دمت تريد الآن، فلتقم بفعل الحب.. أليس كذلك؟

فقلت بصوت منخفض، من غير أن أرفع رأسي:

– نعم.

ولم أكن صادقا، فأنا لم أكن أشتهيها الآن بعد، ولكني كنت أريد أن أتألم حتى نهاية هذا الشعور الجديد الغريب بأن زوجتي أجنبية بالنسبة لي.

وقالت هي تمر خلفي:

– حسنا.

وسمعتها تسير من الجهة الأخرى من السرير. وفكرت بأنها لم يكن لها إلا أن تنتزع قميصها، وتذكرت أني في الماضي كنت أتأمل هذه

الحركة البسيطة بعينين مسحورتين، ولكني هذه المرة لم أشأ أن أنظر، وظللت جامدا، منحنيا، ويداي على ركبتي، منخفض الرأس. وبعد لحظة، أنت نوابض السرير تحت جسم أميلي التي تمددت على الغطاء، وسمعت صوت الثياب وهي تنزع، ثم صوتها، صوتها الغريب الفظيع:

– هيا، تعال! ماذا تنتظر؟

فلم ألتفت ولم أتحرك، ولم أكن أكف عن التساؤل: أكان كل شئ يجري هكذا من قبل؟ وسرعان ما أجبت نفسي "نعم" كل شئ كان كما هو اليوم، وقد كانت تنزع ثيابها وترتمي على السرير، وكيف يمكن أن يكون الأمر مختلفا، ولكن كل شئ كان، في الوقت نفسه، مختلفا. إنه لم يسبق لي قط أن عرفت هذه الوداعة الآلية، الباردة، اللاشخصية، التي كانت تكشف عنها نبرة صوتها وحتى أنين نوابض السرير واندعاك الغطاء. وفي الماضي، كان كل شئ يجري كما في غيمة اندفاع حماسي، ولا وعي ثمل، ومشاركة مسحورة.

وكنت أجدني بين ذراعي أميلي، من غير أن أذكر تقريبا ما الذي حدث، وماذا فعلنا، بين اللحظة التي كنا فيها جالسين وجها لوجه، هادئين وبلا شهوات، وبين اللحظة التي تعانقنا فيها العناق الأعظم.

أما الآن، فإن هذه الغفلة كانت غائبة تماما ومن مسلك أميلي، وبالتالي من مسلكي. أيكون بإمكاني، حتى تحت سلطة إثارة الحواس، أن أراقب حركاتها بنظرة باردة، كما يكون بإمكانها هي أيضا، من غير شك، أن تنظر بدورها إلى حركاتي؟

وفجأة تجسد الإحساس الذي كان يتضح أكثر فأكثر في نفسي المغتاظة، تجسد في صورة دقيقة، إنني لم أكن موجودا بعد تجاه إمرأة كانت تحبني وكنت أحبها، بل تجاه مومس غير مجربة، ونافذة الصبر، وهي تتهيأ لأن تخضع سلبيا لعناقي، آملة أن يكون هذا العناق قصيرا وقليل التعب.

لقد برزت هذه الصورة أمامي. فنهضت فجأة، من غير أن التفت، وقلت:

– لننس هذا، فإني لم أعد راغبا فيه.. وأنا ذاهب لأنام وحدي، فأبقي أنت، هنا..

وتوجهت، على رؤوس أصابعي، نحو غرفة الاستقبال.كان الديوان مهيأ، والغطاء مبسوطا، وقميص أميلي ملقى على السرير، وتناولت هذا القميص، وعدت إلى الغرفة، ووضعته على كرسي. ولكني لم أستطع هذه المرة الامتناع عن النظر إلى أميلي.

كانت ما تزال على الوضع الذي اتخذته لتتمدد وتقول لي "هيا، تعال"، وكانت عارية، وذراع مطوية تحت رقبتها، ورأسها ملتفت نحوي، مفتوحة العينين اللامباليتين، كما لو أن النظر غائب عنهما، بينما كانت ذراعها الأخرى متمددة على جسمها تغطي عانتها بيدها. وفكرت آنذاك بأنها ليست بعد المومس، وإنما هي صورة رؤيت في سراب، بعيدة كما لو أنها لم تكن على بعد خطوتين مني.

الفصل السادس

وفي اليوم التالي، لا أدري لماذا فقد حادث الليلة الماضية، كثيرا من أهميته في نظري.. إنني لم أستنتج من سلوك أميلي النتائج التي يمكن أن يتصورها المرء.

صحيح أنها ظهرت باردة ولا مبالية ما دمت قد فضلت التخلي عن امتلاكها على أن أمتلكها بذلك الشكل. ولكن كنت أحبها، وفي الحب طاقة كبيرة عل النسيان، بالإضافة إلى أن اميلي شاركت في هذا النسيان، لأنها لم تمتنع على عناقي من غير أن تتخلى عن أن تنام وحدها.

وصحيح أنها، هذه المرة أيضا، تصرفت بالطريقة الباردة والسلبية نفسها التي كانت قد هاجت ثورتي، ولكن ما كان يبدو لي غير محتمل في المساء الأول، كان يبدو لي بعد بضعة أيام، لا محتملا فحسب، بل مغريا كذلك.

بفضل الميول الصوفية والإرادة الصداقة للنفس النهمة للأوهام. وكنت قد فكرت، ذلك المساء الأول، بأن أميلي كانت تتصرف كمومس، وبعد أقل من أسبوع، كنت أقبل أن أحبها وأن أكون محبوبا منها هكذا، ولأني في أعماق نفسي كنت قد خشيت أن ترفض تماما أن تكون ملكي، حمدت لها سلبيتها الباردة النافذة الصبر، كما لو أنها كانت الجو الطبيعي لعلاقاتنا الغرامية.

ولكن إن كنت قد ظللت أهدهد نفسي بوهم أن أميلي كانت تحبني كالسابق، أو بالأحرى إن كنت قد فضلت ألا أضع حبنا موضع التساؤل، فإن شيئا ما من جهة أخرى كان يكشف في قلبي التغير الذي طرأ فيما بيننا، وهذا الشئ كان عملي.

فلئن كنت قد تخيلت مؤقتا من مطامحي المسرحية وكرست نفسي للسينما، فإن ذلك لم يكن إلا إرضاء لرغبة أميلي في أن تملك منزلا لها.

وطالما كنت واثقا من حب زوجتي، فإن عملي كسيناريست لم يكن يبدو لي أثقل على الاحتمال مما ينبغي، ولكن بعد حادث ذلك المساء، بدأ لي مرة واحدة أن شعورا من الخيبة والقلق والنفور يغمروني.

والواقع أني كنت قد قبلت ذلك العمل كما كنت سأقبل عملا آخر أشد عقوقا وأقل أهمية، وذلك من أجل حب أميلي وحسب. أما وإن هذا الحب يغيب الآن، فإن عملي كان يفقد معناه وتبريره، ويتخذ في نظري خصائص عبودية محضة.

الفصل السابع

أخذنا بعد ذلك نعيش في هذه العلاقات التي بدت أول الأمر غير محتملة والتي أجهد الآن، وأنا أخشى الأسوأ في أن اعتبرها طبيعية، من غير أن أنجح تماما في ذلك، ففي النهار، أحاديث لا مبالية، تافهة، تهربية، وفي الليل، فعل الحب بين حين وآخر، مع كثير من الارتباك، مع وحشية من قبلي، ولكن من غير أدنى مشاركة حقيقية من قبلها.

وفي الوقت نفسه كنت ماضيا في عملي بهمة. بل حتى بضراوة، بالرغم من أن ذلك كان يحدث بإرادة تزداد ضعفا يوما بعد يوم، واشمئزاز يزداد قوة يوما بعد يوم. ولو أوتيت آنذاك الجرأة على أن أحدد لنفسي الموقف الذي كنت أجدني فيه، لتخليت بالتأكيد عن العمل وعن الحب، مقتنعا كما حدث فيما بعد، بأن كل حياة قد أمحيت منهما. ولكن الجرأة كانت تنقصني، وربما كنت أؤمل بأن الزمن سيتكفل بحل مشكلاتي، بلا أدنى جهد أبذله. والزمن هو الذي حلها فعلا، ولكن لا في الاتجاه الذي كنت أرغبه!

وهكذا كانت الأيام تنقضي بين أميلي التي كانت ترفضني والعمل الذي كنت أرفضه في جو من الانتظار المعتم الأصم.

على أن السيناريو الذي كنت أعمله لحساب باتيستا كان يشرف

على نهايته، وفي الوقت نفسه أومأ باتيستا إلى عمل جديد، أهم من الأول، كان يريدني أن أشارك فيه.

– بمجرد أن تنتهي يا مولتيني، من هذا السيناريو، فسنعمل سيناريو آخر على الفور.. وهو أكثر أهمية.

وأعترف أني رغم كرهي المتزايد لهذا النوع من العمل، فإن الأمور الأولى التي فكرت بها غريزيا هي الشقة، والمبالغ التي كنت ما أزال مدينا بها، فلهذا كنت سعيدا بعرض باتيستا ولكني لم أخبر إميلي بهذا العرض الجديد لأني لم أكن قد عزمت بعد على أن أقبله، وذلك لأني كنت أشعر بأن عملي هذا لا يهمها وبأنها لم تعد تحبني.

وذات صباح، خرجت للقاء المخرج الذي كنت أعمل معه في سيناريو باتيستا. وكنت أعرف أن هذه هي آخر مرة أقصده فيها، لأن المخطوطة كانت على وشك أن تنتهي، وسأكون من جديد حرا، ثم إن شهرين من العمل كانا كافيين لكي أبغض موضوع الفيلم وشخصياته.

وبفضل هذا الأمل في حرية وشيكة، اشتغلت ذلك اليوم بسهولة غريبة. ولم يكن ينقص السنياريو إلا بعض رتوش غير ذات أهمية، ولكننا كنا منذ بضعة أيام نعمل فيها بلا نتيجة. وبينما كنت أكتب عبارة من الحوار صرخت في دهشة:

– ولكن لماذا لا ننهي السيناريو بهذه الكلمات نفسها؟

وكان المخرج، فيما كنت أكتب، يذرع الغرفة جيئة وذهابا، فنظر إلى الصفحة من فوق كتفي وقال بدوره، في لهجة دهشة.

– أنت على حق. إن بالإمكان إنهاءه هكذا!

وإذ ذاك سطرت كلمة "النهاية" في أسفل الصفحة، وأغلقت الملف، ونهضت.. وتنهد المخرج وقال:

– أوف! انتهى الأمر!

قلت:

– نعم. لقد انتهى.

وكان هذا المخرج يدعى "بازيتي"، وكان شابا أشقر بارز القسمات، جافا، دقيقا، مرتبا، وكان في مثل سني تقريبا ولكن العلاقات فيما بيننا، كانت علاقات رئيس ومرؤوس، لأن المخرج له السلطة دائما على معاونية.

وقد استطرد، بعد لحظة، بلطفه البارد الأخرق:

– يجب أن نقول، يا ريشار، بأنك تشبه الحصان الذي تنبعث منه رائحة الأسطبل.. إنني كنت سأراهن أنه كان علينا على الأقل أربعة أيام أخرى من العمل، وها نحن قد تخلصنا في ساعتين.. ها! ها! لابد أن تخيلك قبض باقي الأجر هو الذي أعطاك الإلهام!

فأجبته بلهجة المزاح نفسه:

– نعم، كما تقول تماما.. تخيل.. قبض باقي الأجر.

وألقيت بنظرة إلى ساعتي فكانت الواحدة تقريبا واستطردت:

– حسنا! إنني مسرور أنني أنهيت هذا العمل وأعتقد أنه آن الأوان لكي أذهب.

فصاح بحيوية:

– إطلاقا، يجب أن نشرب نخب الفيلم ولن تذهب هكذا..

وأمسك يدي واستطرد:

– لننتقل إلى الطرف والآخر.. أعتقد أن زوجتي ستكون مسرورة بأن تشرب معنا.

وتبعته إلى خارج المكتب، وكان قد سبقني إلى قاعة الاستقبال وهو ينادي:

– لويز، لقد انتهينا، من السيناريو، وسنشرب الآن نخب ذلك.

وتركت السيدة بازيتي أريكتها لتأتي إلى لقائنا. وكانت إمرأة قصيرة ذات رأس كبير، ووجه متطاول وعينان كبيرتان ممتقعتان غير معبرتين لم تكونا تنتعشان إلا لحضور زوجها، فلا تنفصلان في هذه الحالة عنه، أما في غياب زوجها، فقد كانت تخفضهما بهيئة تواضع. وكانت قد رزقت في أربع سنوات أربعة أولاد.

قال بازيتي بمرحه المربك:

– هيا.. إنني سأعد كوكتيلا.

وجلست على أريكه يغطيها نسيج مزهر، أمام مدخنة من القرميد، وجلست السيدة بازيتي قبالتي على أريكة مماثلة. واتجه بازيتي إلى الركن المقابل من الصالة، نحو قطعة أثاث، هي في وقت واحد مشرب وجهاز راديو، ورأيته ينطوي فوق ساقيه الهزيلتين، فيستخرج منه بحركة نشيطة زجاجتين وثلاثة أقداح ووعاء. وقد وضعها كلها على صينية حملها إلى طاولة تقوم قرب المدخنة وقال لنا إنه ذاهب يأتي بالثلج، ثم خرج.

وظللنا طويلا في صمت أحسست الحاجة إلى قطعه، فقلت:

–لقد انتهينا أخيرا من السيناريو!

فأجابت السيدة بازيتي:

– نعم، لقد قال جينو لي ذلك.

– هل تعرفين موضوعه؟

– نعم، لقد رواه لي جينو.

– وهل يروق لك؟

– إنه يروق لجينو، فهو إذن يروق لي.

ولاحظت أنها كانت قد تفننت بترديد إسم زوجها كلما فتحت

فمها. وكنت قد تكلمت بلهجة غير مبالية، فأجابتني دائما بأكبر حظ من الجدية. وعاد بازيتي بدلو الثلج وناداني:

– زوجتك على التليفون، يا ريشار.

ولا أدري لماذا نفر الدم عنيفا إلى قلبي كما لو أنه ارتداد مفاجئ لضيق مألوف. ونهضت آليا وتوجهت نحو التليفون وتناولت السماعة، وسمعت صوت أميلي:

– أعذرني، يا ريشار، يجب أن تتدبر أمرك اليوم لتتغدى خارج البيت، فإني سأتغدى مع أمي.

– ولكن، لماذا لم تقولي لي ذلك قبل الآن؟

– لم أكن أريد أن أزعجك في عملك.

– حسنا، سأذهب لتناول الغذاء في المطعم.

– إلى اللقاء.

وقطعت المخابرة، فالتفت إلى بازيتي، فسألني:

– ألا تأكل في بيتك يا ريشار؟

– لا.. بل سأذهب إلى المطعم.

– ولكن، إبق فتناول الغذاء معنا.. وسيسرنا ذلك.

وكان إحساس من الخيبة قد غمرني بشكل غير قابل للتفسير لدي

فكرت بأني سأتناول الطعام وحدي في المطعم، ولاشك في أن ذلك لأني قد تلذذت مقدما بفرحة إبلاغ أميلي إنتهاء السناريو. لقد سرتني دعوة بازيتي، وقد قبلتها بعرفان. وكان في هذه الأثناء قد فتح الزجاجتين، وأخذ يصب الدجن والفرموت ويفرغهما في وعاء المزج.

وبعد أن خض الوعاء بقوة ملأ قدحينا، وأفرغ قليلا من الكوكتيل في القدح الثالث. ورفعنا نحن الثلاثة أقداحنا، فقال بيزاتي:

– عقبال مائة سناريو كهذا!

وبلل شفته فقط، ثم وضع قدحه على الطاولة. أما أنا، فأفرغت كأسي جرعة واحدة. وشربت السيدة بازيتي بجرعات صغيرة ثم نهضت وهي تقول:

– إنني أريد أن ألقي نظرة على المطبخ، هل تسمحان؟

وخرجت، فاحتل بازيتي مكانها على الأريكة المزهرة وأخذها نثرثر. ولا أدري لماذا كان شعور كثيف بالضيق يتسلل إلى نفسي، وتذكرت آنذاك أن أول ضربة من ضربات الألم إنما كنت قد أحسست بها وأنا أسمع في التليفون صوت أميلي، باردا، لا شخصيا، متحفظا، وخصوصا مختلفا عن صوت السيدة بازيتي حين كانت تنطق بإسم "جيتو" السحري. ولكن لم يمكنني أن أعمق هذه التأملات، لأن السيدة بازيتي ظهرت من جديد وأعلنت أن بوسعنا أن ننتقل إلى الطعام.

كانت قاعة طعام آل بازيتي من نوع المكتب والصالون نفسه أثاث، براق لطيف رخيص الثمن من الخشب المدهون باللون الأبيض، وأخذنا نتناول الطعام في صمت ورزانة، فقد كنت آكل وأشرب وأصغي إلى بازيتي من غير أن أشعر تقريبا بما أفعل وإذ كان نظري الشارد ينتقل من حاجة إلى حاجة من غير أن يجد شيئا يمكن أن يجتذبه، توقف عند وجه السيدة بازيتي التي كانت تصغي إلى زوجها باهتمام وعيناها مثبتتان كالعادة على زوجها.

وإذ ذاك دهشت لتعبير العينين في ذلك الوجه.. إنه تعبير رقيق محزن، ممزوج بإعجاب متواضع وافتتان حسدي وحياء يكاد يكون كئيبا –كنت من شدة الدهشة– بحيث أن العاطفة التي كانت تنعكس فيهما كانت تبدو لي حقا غير قابلة للفهم.

إن بازيتي ذاك الذي يبلغ هذا الحد من فقدان اللون وضعف الصحة وتوسط الذكاء والحرمان من جميع المزايا التي يمكن أن تفتن امرأة، كان يبدو لي شيئا لا يصدق بالنسبة لمثل هذه العناية. ثم قلت لنفسي إن كل رجل ينتهي به الأمر إلى وجود المرأد التي تقدره وتحبه.

وأيقظت هذه الفكرة في نفسي ألما عميقا، والواقع أني لم أكن أستطيع بعد أن احتمل أن أعيش هكذا بين أميلي التي لم تكن تحبني وبين عمل لم أكن أحبه بعد، بسبب من أميلي. وقلت في نفسي: "إنني لا أستطيع بعد المضي في هذا الطريق، ويجب علي مرة أخيرة أن أتفاهم

مع زوجتي.. وإذا لزم الأمر، انفصلت عنها وتركت عملي.."

على أني رغم هذا القرار اليائس، لاحظت أني لم أكن أنجح في الإيمان به تماما، فالحق إني لم أكن مقتنعا بعد كل الاقتناع بأن أميلي قد ابتعدت عني نهائيا، ولا إني سأجد القوة على الانفصال عنها، وعلى التخلي من عملي ككاتب سيناريو، وعلي أن أعيش وحدي.

وانتهي طعامنا أخيرا، ولله الحمد. وانتقلنا من جديد إلى الصالون حيث كان لابد من ملء الشيكات المختلفة للاستقبالات البورجوازية: القهوة.. والأحاديث الفارغة التي تزجي الوقت..

وحين حسبتني قادرا على الاستئذان بالإنصراف، نهضت. شاكرا للسيدة بازيتي وزوجته هذه الدعوة اللطيفة.. فرافقني بازيتي إلى الباب مودعا.

الفصل الثامن

توجهت إلى منزلي. وكنت أعلم أن أميلي كانت غائبة، باعتبار أنها قد تناولت الغداء مع أمها، ولكني كنت مساء أمس قد وعدت باتيستا أن أكون في بيتي بعد الظهر، حيث سيكلمني عن السيناريو الجديد.

وإذن، فقد عدت إلى المنزل، وتوجهت نحو المصعد، فأغلقت أبوابه وضغطت على زر الطابق الأخير الذي أسكنه. وفيما كنت أصعد، قلت لنفسي أني لم أكن في الحقيقة أملك حق تحديد موعد لباتيستا، وأنا غير واثق إطلاقا أن أقبل عرضه الجديد، لأن كل شئ متوقفا على تفاهمي مع أميلي..

ودخلت منزلي، وأنا أفكر بهذا، ودفعت باب قاعة الجلوس. وإذ ذاك رأيت أميلي متمددة على الديوان، وبيدها كتاب. كانت ثمة طاولة صغيرة تحمل صحونا وبقايا طعام.

إن أميلي لم تخرج، وهي لم تتناول الغداء في بيت أمها، لقد كذبت علي.. ولابد أن وجهي كان ذا هيئة غريبة، لأنها سألتني، بعد أن ألقت علي نظرة:

– ما بك؟ ماذا حدث لك؟

فقلت بصوت مخنوق:

– المفروض أنك تتغدين في منزل أمك؟ فكيف أنت هنا؟

فأجابت في هدوء:

– لقد كلمتني بالتليفون في اللحظة الأخيرة.. فقد فكرت بأنك لم تسكن بعد عند بازيتي.

كنت واثقا من أنها كانت تكذب، ولم أكن أدري علام كان هذا اليقين قائما. فسكت وجلست بدوري على الديوان. وبعد لحظة سألتني.

– وأنت، ماذا فعلت؟

– لقد دعاني بازيتي وزوجته إلى تناول الغذاء.

وفي هذه اللحظة، رن جرس التليفون في الغرفة المجاورة. وفكرت: "إنه باتيستا، وسأقول له إني عزمت على ألا اشتغل بهذا السيناريو، فليذهب كل شئ إلى الجحيم! إنه من الواضح تماما أن هذه المرأة لا تملك ذرة من الحب لي..".

فنهضت ورفعت الساعة إلى أذني، ولكن بدلا من صوت باتيستا، سمعت صوت حماتي تسألني:

– ريشار، هل أميلي هنا؟

وقبل أن أفكر أجبت:

– لا، ليست هنا.. لقد قالت لي أنها تتناول الطعام عندك..

فقال الصوت مندهشا:

– عجبا، ولكني أخبرتها بالتلفون أن ذلك لم يكن ممكنا، لأن هذا هو يوم عطلة خادمتي.

وفي تلك اللحظة، رفعت عيني فرأيت عبر الباب أميلي تنظر إلي باحتقار مندهشة لكذبي. فصرخت فجأة، كما لو أني أستدرك قائلا:

– انتظري.. لقد وصلت أميلي في هذه اللحظة.. سأعطيك إياها.

وفي الوقت نفسه أومأت لأميلي أن تأتي إلى التليفون. فنهضت عن الديوان، واجتازت القاعة خافضة الرأس، وتناولت السماعة من يدي من غير أن تنظر إلي ولا أن تشكرني. وتوجهت نحو قاعة الاستقبال. وغادرت الديوان ممتلئا بالاضطراب، وظلت أميلي مدة طويلة على التليفون. فقد كنت أعرف أنها شديدة التعلق بأمها التي ظلت أرملة والتي لم يكن لها سواها بعد ويبدو أنها قد جعلت منها كاتمة أسرارها.

وأخيرا ظهرت أميلي.. وفهمت من تعابير وجهها الشديدة القسوة أنها كانت غاضبة علي. وسرعان ما هاجمتني وهي تصف الصحون الباقية على الطاولة الصغيرة:

– هل أصبحت مجنونا؟ لماذا قلت لأمي أني كنت في الخارج؟

وظللت مغلق الفم، منزعجا باللهجة التي كانت تستعملها. وأضافت تقول:

– لقد كان ذلك لكي ترى هل قلت الحقيقة؟ ولتتأكد هل من الصحيح أن أمي كانت قد أخبرتني أنها لم تكن تستطيع أن تتغدى معي؟

فأجبت في جهد:

– ربما بسبب هذا، في الواقع..

– أرجوك إذن ألا تعيد هذا.. إنني أقول الحقيقة، وليس لدي ما أخفيه.. إنني لا أستطيع أن أحتمل هذا النوع من التصرف..

ونطقت بهذه الكلمات بلهجة حاسمة ثم خرجت من القاعة وظللت وحدي، وتذوقت لحظة الشعور المرير بالانتصار. لقد كان ذلك صحيحا إذن.. إن أميلي لم تعد تحبني، ولو كنا في الماضي، لما حدثني قط بهذه اللهجة، بل كانت تقول لي في رقة ممزوجة بالدهشة المرحة:

– ولكن هل كنت تظن حقا بأني كذبت عليك؟

ولكان كل شئ ينتهي بقبلة شبه أمومية، أو بملامسة من يديها الكبيرتين الطويلتين على جبيني كما لتطرد كل هم وريبة.

ومن الصحيح إني في ذلك العهد ما كنت أفكر قط بأن أراقبها، ولا أن أشك في كلامها. ولكن كل شئ قد تغير. هي في حبها، وأنا في حبي، وكان كل شئ يبدو متجها نحو تغير أسوأ.

ومع ذلك، فقد كان ما يزال في نفسي أمل بأني قد فسرت تفسيرا خاطئا حادثا لا أهمية له في الحقيقة. وقلت أن على أميلي نفسها أن

تؤكد لي أنها لم تكن تحبني بعد.كانت جميع هذه الأفكار تتتابع بسرعة في ذهني. وأنا جالس على الديوان. ثم دخلت أميلي، وعادت تتمدد خلفي، واستأنفت قراءة مجلتها، وقلت لها إذ ذاك من غير أن التفت:

– سيكلمني باتيستا بالتلفون بعد قليل ليعرض على سيناريو جديدا، وهي عملية مربحة جدا هذه المرة..

– ستكون مسرورا كما اعتقد؟

– بإمكاني أن أربح من هذا السيناريو مالا كثيرا.. إنه فيلم كبير.

فسألت بصوت شارد:

– أي فيلم؟

– لا أدري، والحقيقة أني قزرت أن أرفض هذا العرض.

فسألت بصوت ما يزال هادئا، لا مباليا:

– ولماذا؟

فنهضت واستدرت حول الديوان وأتيت أجلس قبالتها. وخفضت أميلي المجلة التي كانت تقرأها، ونظرت إلي، فمضيت أقول بكل إخلاص:

– لأنك كما تعلمين أكره هذا النوع من العمل، ولا أقوم به إلا محبة لك.. لندفع أقساط هذه الشقة التي تحرصين عليها.. ولكني

تيقنت أنك لا تحبينني بعد.. ولهذا فإن ذلك كله يصبح بلا فائدة.. إنني لا أستطيع الاستمرار في العيش على هذا النحو، واشعر أن الأوان قد آن لأقول لك ذلك.. أنت تعرفين الآن.. إن باتيستا سيطلبني عما قليل، وسأرسله إلى الشيطان.

انقضى الأمر وتكلمت، وكنت أحدق في أميلي منتظرا جوابها. ولم تجب في الحال. إن تصريحي المفاجئ قد أخذها طبعا على حين غرة، ثم قالت بحذر:

– هل هناك ما يجعلك تفكر بأني لا أحبك بعد؟

فأجبت بعنف مهووس:

– كل شئ، طريقتك في الحديث معي، وفي النظر إلي، وفي تصرفك تجاهي.. كل شئ.. بل لقد عبرت منذ شهر عن رغبتك في أن ننفصل في غرفة النوم.. وأنت لم تريدي ذلك قط في الماضي!

كانت تنظر إلي، غير واثقة، ثم رأيت فجأة في عينيها بريق عزم سريع، وقد أجابت في رقة:

– أقسم لك أني لا أستطيع أن أنام والنافذة مفتوحة..

– ولكني عرضت عليك أن تغلقي النافذة ليلا.

– ثم إن هناك شيئا آخر (وترددت) فأنت لا تكون صامتا وأنت نائم.. (وابتسمت بسمة خفيفة وأضافت) إنك تشخر.

وأدهشني أن أعلم أني كنت أشخر، وكدت لا أصدق ذلك واستطردت:

– إنك لا تحبينني بعد لأن إمرأة محبة (وترددت منزعجا) لا تقوم بفعل الحب كما تقومين أنت به معي منذ حين..

وسرعان ما احتجت، بمرارة تقريبا:

– إنني أتساءل حقا ماذا تريد؟ فنحن نقوم بفعل الحب كلما رغبت في ذلك.. هل رفضت يوما هذا؟

– صحيح أنك لم ترفضي، ولكن..

فقاطعتني واستمرت تقول بحيوية.

– في كل مرة أردت أن تقوم بفعل الحب، استجبت لك ولست رجلا يكتفي بمجرد الفعل إنك تحسن القيام بفعل الحب جدا..

قلت وقد أثارني الغرور، بالرغم مني:

– صحيح؟

قالت بجفاف من غير أن تنظر إلي:

– نعم.. إذا كنت لا أحبك.. فإن تفننك نفسه كان يبدو لي مضجرا، ولسعيت إلى التهرب.. إن بوسع المرأة أن تجد دائما أعذارا للتمنع، أليس كذلك؟

قلت:

– مفهوم.. إنك لم تتمنعي قط، ولكن طريقتك في فعل الحب هي التي تثبت لي أنك لا تحبينني!

– وما هي هذه الطريقة؟

كان علي أن أجيبها:

– "إنك تقومين بفعل الحب كالمومس الخاضعة لزبونها والتي تتمنى بكل بساطة أن يتم الأمر بسرعة.."

ولكني احتراما لها ولي، فضلت أن أصمت. واكتفيت بالقول:

– بالإجمال، ومهما كان السبب، فأنا مقتنع بأنك لا تحبينني بعد.

وفجأة ألقت ذراعيها حول عنقي، في اندفاعة مفاجئة من شخصها كله، وهي تهتف بصوت بدا غريبا في مسمعي:

– لماذا تتكلم هكذا؟ إنني أحبك لا أكثر ولا أقل من الماضي!

وشعرت بنفسها الحار على رأسي، ولامست يدها جبيني وصدغي وشعري، وجذبت رأسي إلى صدرها وضمته بذراعيها وسمعت صوتها يقول:

– ما الذي ستفعله لو كففت حقا عن حبك؟

لقد كشفت عن نفسها: كنت إذن على حق، ومن غير أن أتحرك أجبت:

– سبق أن اجبتك على هذا السؤال.. سأرفض عرض باتيستا.

وكنت أود أن أضيف:

– "وسأنفصل عنك" ولكني لم أملك الشجاعة لأن أقول ذلك في تلك اللحظة، وخدي على نهدها ويدها على جبيني.

وسمعتها تتنهد وهي ما تزال تضمني إليها:

– ولكني أحبك، وهذا كله عبث.. أتدري ما الذي ستفعله؟ حين يطلبك باتيستا سنحدد له موعدا، فسنوافيه إليه وتقبل هذا العمل

وداعبني أمل غامض في أنها لا تكذب علي، وشعرت في الوقت نفسه أنها قد أقنعتني، لهذه اللحظة على الأقل. ولكن كم كنت أود الآن أن أعرف المزيد، وأن أطمئن كل الاطمئنان!

وإذ ذاك رأيتها تتكلم ببساطة، كما لو أنها حدست برغبتي، فتتمتم:

– قبلني، هل تريد؟

فاستويت وتأملتها لحظة قبل أن أعانقها، وتوقفت عند تعبير التعب الذي كان يطبع وجهها المتحلل المتردد أكثر من أي وقت مضى، كما لو أنها إذ حدثتني وداعبتني وعانقتني إنما بذلت جهدا فوق الجهد البشري.

وكانت تتهيأ وهي تضمني لبذل جهد أشد قسوة. وقد أخذتها من ذقنها، وأدنيت شفتي من شفتيها حين رن جرس التليفون، فقالت وهي تتخلص بعزاء واضح:

– إنه باتيستا.

وركضت نحو الغرفة. ومن الديوان الذي ظللت جالسا عليه، رأيتها عبر الباب المفتوح تتناول السماعة وتقول:

– نعم، إنه هنا، وسأعطيك إياه.. كيف حالك؟

كلمات أخرى من الجهة المقابلة من الخط. وقالت وهي تومئ لي بيدها إيماءة ذكية:

– كنا بالفعل نتحدث عنك وعن فيلمك الجديد..

عبارات أخرى مجهولة.. ثم من جديد صوتها الرصين:

– ولكن طبعا، سنلتقي كالسابق، إنني أعطيك ريشار.

وذهبت أتناول السماعة. وكما توقعت من قبل، أخبرني باتيستا أنه سينتظرني في اليوم التالي في مكتبه، بعد الظهر، فأجبته أني سأقصده، وتبادلت معه بضع كلمات أخرى ثم وضعت السماعة.

الفصل التاسع

في اليوم التالي ذهبت إلى مكتب باتيستا في الموعد المحدد. وفي صالة الاستقبال كان يوجد مقعد كبير وخلفه ثلاث سكرتيرات يستقبلن الزائرين.

كان باتيستا منتجا شابا استطاع خلال هذه السنوات الأخيرة أن يشق طريقه بفضل أفلام ذات نوعية مسطحة بما فيه الكفاية، ولكنها ذات نجاح تجاري مرموق. وكانت شركته المسماة بتواضع "أفلام النصر" تتمتع في ذلك الحين بحظوة ممتازة.

وأعطيت أسمي وذهبت أجلس في جوف القاعة. وكنت في حالة نفسية في مثل يأس حالة الأمس، ولكن كنت أحس أني أكثر هدوءا. فبعد محادثتي مباشرة مع أميلي، كنت قد فكرت طويلا واقتنعت نهائيا أنها قد كذبت علي إذ أكدت لي حبها.. وقلت لنفسي أنه يجب علي أن أجبر زوجتي على توضيح موقفها.

كنت من شدة استغراقي في أفكاري بحيث لم ألاحظ على الفور أن احدى السكرتيرات كانت واقفة أمامي وهي تردد لي مبتسمة:

– يا سيد مولتيني، إن السيد باتيستا ينتظرك.

فانتفضت ودخلت مسرعا إلى مكتب المنتج. كان باتيستا جالسا

خلف مكتب معدني مطلي بالأخضر. وأنا ألاحظ أني بالرغم من حديثي الكثير عن باتيستا، لم أصفه بعد، وإنه ليس من غير المجدي أن أفعل ذلك.

كان باتيستا واحدا من هؤلاء الرجال الذين يعطيه مساعدوه ومرؤسوه، حين يدير ظهره، أوضافا جميلة من مثل "الوحش"، القرد الأكبر، "الغوريلا". فقد كان ذا قامة ربع، وكتفين واسعين جدا، ونصف أعلى طويل ذي ساقين قصيرين، ومن هنا تشابهه مع قرد كبير، هذا التشابه الذي استحق عليها تلك الألقاب.

وقد كان في وجهه كذلك شئ قردي، فقد كان شعره الذي ينجلي عن صدغيه مزروعا في منخفض جبينه، وكان ذا حاجبين كثيفين متحركين، وعينين صغيرتين، وأنف قصير عريض، وفم واسع.

ولم يكن باتيستا وحده، فقد كان جالسا أمام المكتب رجل قدمه لي باسم "رينغولد". وكنت أعرف من يكون هذا الشخص، ولكني كنت أراه للمرة الأولى. كان رينغولد مخرجا ألمانيا سبق له، في عهد السينما السابقة للنازية، أن أخرج عدة أفلام من نوع الـ "كولوسال" التي أحرزت نجاحا هائلا. وقد روى أنه كان يعمل في هوليود.

وتناول باتيستا الأمور من بعيد، فقال لي وهو يسير إلى رينغولد:

– كنا نتحدث عن كابري.. هل تعرف كابري، يا مولتيني؟

فأجبت:

– قليلا.

– إن لي هناك مقصورة.. ولكني مع الأسف لا أسكنها قط.. ولعلني لم أمكث فيها شهرين منذ أن أشتريتها.. وكنت أقول لرينغولد إن هذه المقصووة ستكون المكان المرتجي لتأليف سناريو الفيلد. إن المناظر الطبيعية ستلهمكما: لأنها من لون الفيلم نفسه، كما أوضحت لرينغولد.

وتدخل رينغولد ليقول:

– إن بإمكان المرء، يا سيد باتيستا، أن يعمل في أي مكان.. واختيار كابري يمكن بالتأكيد أن يكون مناسبا، لاسيما إذا التقطنا المناظر الخارجية في خليج نابولي، كما أعتقد.

– تماما..

على أن رينغولد يقول لي أنه يفضل الإقامة في الفندق بسبب عادته، وهو يحب من جهة أخرى أن يكون وحيدا في بعض الساعات ليفكر بهدوء في عمله.. وبالمقابل، أعتقد أن بإمكانك أنت، يا مولتيني، أن تسكن المقصورة مع زوجتك.. إن فيها كل وسائل الراحة، ولن يكون من الصعب وجود امرأة لتقوم بأعمال البيت.

وكالعادة، فكرت أولا بإميلي.. إن قضاء فترة من الزمن في كابري،

في مقصورة جميلة، يمكن أن يحل أمورا كبيرة. وتيقنت فجأة، بلا سبب، أن كل شئ هناك سيتضح. وكان أن شكرت باتيستا بحرارة.

– شكرا.. اعتقد أنا أيضا أن كابري مناسبة لكتابة سناريو.. وسنكون أنا وزوجتي سعيدين بالإقامة في مقصورتك.

– حسنا اتفقنا إذن! ستذهبون إلى كابري، وسألحق بكم.. والآن، لنتحدث قليلا عن الفيلم.. لقد عرض على رينغولد اقتراحا بدا لي هاما.. لقد لاحظ أن الأفلام المستمدة من التوراة تحظى منذ حين بنجاح كبير.. وهي التي حققت بالفعل أكبر الأرباح.. لقد قال لي رينغولد: "إن الانغلوساكسون يملكون التوراة، وأنتم سكان البحر الأبيض المتوسط، تملكون هوميروس، أليس كذلك؟

وهنا التفت إلى رينغولد، كما لو أنه كان غير واثق من استشهاده.ولكن رينغولد قال مؤكدا وقد انعكس على وجهه تململ خفيف:

– تماما..

واستطرد باتيستا وهو ما يزال يشتشهد برينغولد:

–إن هوميروس بالنسبة إليكم، أنتم سكان حوض المتوسط، كالتوراة بالنسبة للانجلوساكسون.. فلماذا لا نخرج فيلما عن "الأوديسة" مثلا؟

وسألت مندهشا:

– الأوديسة كلها، أم فصل من الأوديسة؟

وسرعان ما أجاب باتيستا:

– لقد ناقشنا القضية، وانتهينا إلى أن من الأفضل أن نأخذ بعين الاعتبار مجموع الأوديسة بالذات..

– في الأوديسة.. كلنا يعلم أن في كل صفحة شعرا.. والمهم هو نقل هذا الشعر إلى الفيلم!

فقال باتيستا وهو يتناول مسطرة من عل الطاولة ويوجه طرفها نحوي:

– صحيح جدا.. ولكنكما ستكونان اثنين من أجل هذا.. أنت ورينغولد إنني أعرف أن الشعر موجود هناك.. فعليكما أنتما أن تستخرجاه!

– إن الأوديسة عالم برمته.. وبإمكاننا أن نستخرج منه ما نشاء.. ويكفي أن يعرف المرء من أية وجهة نظر ينطلق..

فبدأ على باتيستا أنه منزعج من قلة حماستي، وتأملني في تنبه قائلا:

– إن ما استوقفني خاصة في الأوديسة هو أن شعر هوميروس هو دائما مسرحي، وحين أقول مسرحي أعني ما يروق الجمهور حتما.. لنأخذ

مثلا فصل "نوزيكا": إننا نرى فيه جميع هاتيك الفتيات الجميلات العاريات اللواتي يسبحن في الماء تحت أنظار يوليوس المختبئ خلف أحد الأدغال.. إن هذا، مع فارق بسيط، هو مشهد من "حسناوات الحمام".. ولنأخذ الآن "بوليفام"، المسخ ذا العين الوحيدة، العملاق.. إنه "كنغ – كونغ"، أحد انجح أفلام فترة ما قبل الحرب.. و"سيرسه" في قصره، إنما هو "انتينايا" في "الاتلينتيد" هذا ما أدعوه بالمسرحي.. على هذا النحو أرى "أوديسه" أفلام "تريومف"! فما قولك في هذا، يا مولتيني؟

فأجبت بما فيه الكفاية من الإخلاص:

– أخشى ألا يكون هذا النوع الذي يلائمني..

– ولماذا؟ لقد سبق أن قلت لي مرارا أنك كنت راغبا في المشاركة بفيلم ضخم.. وها أنت الآن تنسحب إذ أتيح لك إمكانية ذلك!

وحاولت أن أفسر موقفي:

– أحس يا باتيستا أني مخلوقا خصوصيا للأفلام البسيكولوجية، أما هذا الذي تتحدث عنه، فسيكون مسرحيا صرفا، إذا فهمت الأمر جيدا، من نوع الأفلام الأمريكية المستمدة من موضوعات توراتية..

ولم يتح لباتيستا هذه المرة أن يجيب، إذ تدخل رينغولد قائلا:

– إسمع يا سيد مولتيني، إذا كنت تحس نفسك مخلوقا للموضوعات البسيكولوجية فلا تتردد في وضع هذا السيناريو، لأن هذا

الفيلم، لو تعلم، ليس شيئا آخر غير تنمية العلاقات البسيكولوجية بين يوليوس وبينيلوب.. والفكرة التي أريد تصويرها هي فكرة رجل يحب إمرأته وهي لا تحبه..

وذكرتني عبارة المخرج فجأة قضية علاقاتي مع أميلي، وقد كانت في الواقع علاقات رجل يحب زوجته وهي لا تحبه.

ولم أدر ما ينبغي أن أقول، فتمتمت بالاعتراض الذي خطر لذهني تلقائيا:

– عجبا، إن الأوديسة كلها، تدور حول حب بينيلوب ليوليسوس. فأبعد رينغولد اعتراضي ببسمة، وقال:

– ليس هو الحب، يا سيد مولتيني، بل الأمانة.. إن بينيلوب أمينة ليوليسوس، ولكنا لا نعرف إلى أي حد تحبه.. والأمانة، في بعض الأحوال، نوع من الثأر، للعزة والغرور.. أقول أنها اللعنة، وليس حبا

وزادت كلمات رينغولد هذه قلقي، وردتني من جديد إلى أميلي.وتهت في أفكاري، وأعادني إلى الوعي صوت باتيستا الذي كان يقول:

– حسنا لقد اتفقنا يا موليتني، إنك ستعمل مع رينغولد؟

فأجبت في مشقة: اتفقنا

– حسنا جدا. هذا إذن ما سوف نفعله.. ستقدم لي يا مولتيني

ملخصا للأوديسة.. وما إن يعود، رينغولد من باريس حتى نسافر معا إلى كابري، وتشرعان فورا في العمل.

وبعد بضع كلمات لخصت محادثتنا، نهض رينغولد، فنهضت آليا كذلك. وكنت أشعر أنها كانت اللحظة المناسبة للتحدث عن عقدي وعن السلفة التي كنت أطلبها، وفيما كنا متجهين إلى الباب قلت لباتيستا:

– والعقد؟

فقال باتيستا:

– وسلفتك تنتظرك أيضا، يا مولتيني..

ثم توجه إلى سكرتير جالس أمام مكتب:

– هذا هو السيد مولتيني، من أجل العقد والسلفة.

وكان السكرتير قد نهض ففتح ملفا سحب منه عقدا جاهزا كان مربوطا به شيك. وبعد أن صافح باتيستا يد رينغولد عاد إلى مكتبه.

واقترب رينغولد باسطا يده، فقال لي:

سنلتقي إذن يا سيد مولتيني لدى عودتي من باريس.. ولا تأخذك الهموم.. ودع باتيستا يتكلم.. إننا سنعمل فيلما بسكولوجيا.

وابتسم لي، وشد على يدي، وخرج. وفي تلك اللحظة قال السكرتير:

– أيها السيد مولتيني، هل تتفضل فتوقع هنا..؟

الفصل العاشر

كانت الساعة لا تتجاوز السابعة حين عدت إلى منزلي.. وناديت إميلي – وأنا أعبر غرف الشقة – ولكن بلا جدوى. كانت قد خرجت لشراء بعض الحاجيات. وقصدت غرفة الاستقبال، وبحثت على رفوف المكتبة عن ترجمة الأوديسة.. بقلم باندمونت. ثم جلست أمام مكتبي، فوضعت ورقة على الآلة الكاتبة وتهيأت للبدء في التلخيص بعد أن أشعلت سيجارة.

وفجأة خطرت لذهني هذه الفكرة، كفقاعة هواء تلامس صفحة مستنقع:سأكون مضطرا الآن إلى أن أمسخ الأودية على غرار الموجزات السينمائية. ولدى هذه الفكرة انتابني مرة أخرى قرف عميق من هذه المهنة التي فرضت علي. ومن جديد، شعرت، في ألم حاد، بأن هذا القرف كان صادرا عن يقيني بأن أميلي لم تعد تحبني. إنني حتى ذلك الحين لم أكن قد عملت إلا إكراما لها، فإذا افتقدت حبها، فلن يكون يعملي أية غاية.

لا أدري كم بقيت من الوقت جامدا، مثقوقعا على كرسي، تجاه الآلة الكاتبة، وعيناي محدقتان في النافذة. وسمعت أخيرا باب الشقة يصفق، وصوت خطى، ففهمت أن أميلي قد عادت. ولم أتحرك. وفتح الباب أخيرا خلف ظهري، وسألني صوت أميلي:

– أنت هنا؟ ماذا تعمل؟ هل تشتغل؟

والتفت إليها. كات واقفة على العتبة، ورزمة في يدها وأجبت.

– لا، لا أشتغل.. كنت أتساءل إذا كان علي أن أقبل سناريو باتيستا الجديد أم لا.

أغلقت الباب، وأقبلت تحدثني وهي واقفة قرب مكتبي:

– ألم تتفقا؟ أليس ما يعرضه عليك كافيا؟

– بلى، هو كاف.. وقد اتفقنا.

– ما هي القضية إذن؟

وأدركت دفعة واحدة أنه آن الآوان لتفاهم جديد، ونهائي هذه المرة. ونهضت طفرة واحدة وأمسكت أميلي من ذراعها:

– لنذهب إلى الغرفة المجاورة، يجب أن أكلمك.

فقامت بحركة تراجع وهي أقل ذعرا من لهجة صوتي منها من القوة التشنجية التي كنت أشد بها على ذراعها:

– ما بك؟ هل أنت مجنون؟

– لا، لست مجنونا، لنذهب إلى الغرفة المجاورة، أريد أن أحدثك..

وسحبتها قسريا إلى الصالة ودفعتها إلى أريكة:

– اجلسي.

وجلست قبالتها:

– والآن، سنتحدث.

فنظرت إلي مترددة، وهي لا تزال قلقة قليلا:

– تكلم. إنني مصغية إليك.

– تذكرين إني قلت لك أمس إني غير راغب بوضع هذا السيناريو، لأني لم أكن واثقا من حبك.. وقد أجبتني أنك كنت تحبينني، وأن علي أن أقبل العرض، أليس كذلك؟

– هذا صحيح..

فقلت في عزم:

– حسنا، إنني مقتنع بأنك قد كذبت علي.. لماذا؟ لست أدري السبب.. ربما بدافع الشفقة، وربما بدافع المصلحة.

فقاطعتني بمرارة:

– ولكن أية مصلحة؟

– المصلحة في أن تظلي في هذا البيت الذي تحبينه..

فأدهشني عنف رد فعلها. ذلك أنها نهضت فجأة وقالت بصوت مرتفع:

– ولكن ما أدراك بذلك؟ إنني لست حريصة على هذا البيت، على الإطلاق.. إنني مستعدة تماما للعودة إلى غرفة مفروشة.. ومن الواضح أنك لا تعرفني.. إن هذا لدي سواء تماما..

وأحسست من هذه الكلمات بشعور حاد من الألم، كما يحدث للمرء حين تهان هبة له كلفته تضحيات مريرة. إن هذا البيت الذي تتحدث عنه بهذا القدر من الاحتقار كان في الحقيقة حياتي كلها خلال هذين العامين، لقد تركت من أجله عملا كنت أحبه، وتخليت عن أعز مطامحي.

وقلت وأنا أجهد في تمالك نفسي وفي اتخاذ لهجة مصالحة وتعقل:

– لندع بيتنا جانبا، ولنتحدث عن عواطفك تجاهي.. لقد كذبت علي أمس. ولا أدري السبب حين قلت لي أنك تحبينني، ولأنك كذبت علي لا أجد بعد القوة على العمل للسينما.. لقد كنت أفعل ذلك من أجلك وحدك.

– ولكن من قال لك إني كذبت عليك؟

– هذه أمور لا تفسر، وإنما تحس.. وأنا أحس أنك لا تحبينني بعد..

وللمرة الأولى قالت في اندفاع مخلص:

- ولكن لماذا أنت حريص على أن تعرف بعض الأمور بالذات؟

قالت ذلك بصوت حزين متعب، وعيناها تحدقان في النافذة، وأضافت:

- دع هذا.. فذلك أفضل لنا كلينا. أنا ذاهبة لتغيير ملابسي.

ثم أرادت أن تتجه إلى الباب، ولكني أمسكتها من معصمها وأنا أصرخ:

- لن تذهبي.. يجب أن تقولي لي الحقيقة، في هذه اللحظة بالذات.

- حسنا! أنت الذي أردت ذلك، إنني لم أكن أطلب أكثر من أن أظل أعيش كما في الماضي.. ولكن ما دمت تريد ذلك، فهذا صحيح.. إنني لم أعد أحبك.. هذه هي الحقيقة!

ولا أذكر كيف تلقيت هذا التصريح. لقد ارتجفت على الأرجح، كما يرتجف المرء حين يقف تحت "دوش" مثلج وهو يعرف مقدما الشعور الذي سيحسه. ثم جهدت أن أتمالك نفسي، فقلت بأهدأ لهجة أستطيعها:

- تعالي هنا، إجلسي واشرحي لي كيف حدث ذلك؟

فأطاعت وجلست على الديوان وأجابتني، كما لو أنها مدفوعة إلى النهاية:

- ليس ثمة ما يشرح.. إن كل ما في الأمر هو أني لا أحبك بعد..

وبمقدار ما كنت أحاول أن أبدو متعقلا، كانت شوكة هذا الألم الذي لا يوصف تتغرز في لحمي. وجهدت في مشقة أن أبتسم:

- أنت تقرين على الأقل أن من واجبك أن تقدمي لي تفسيرا..

- لم أعد أحبك، ولا أستطيع أن أقول شيئا آخر.

- ولكن لماذا؟ لقد كنت تحبينني في السابق، أليس كذلك؟

- نعم، كثيرا.. أما الآن، فقد انتهى الأمر.

- ولكن.. لماذا؟ إن هناك سببا؟

- ربما.. ولكني لا أستطيع أن أشرحه..

- إذا لم تكلميني بصراحة، فبإمكاني أن أتصور،.. شيئا رديئا جدا!

فنظرت إلي من غير أن تنبس بكلمة نظرة نفاذة فريدة، ثم قالت:

- سأذهب لأغير ملابسي.

- لن تذهبي قبل أن تقولي لي الحقيقة.

وغمرني فجأة شعور فظيع. لقد كانت تلك اللهجة الهادئة التي تبنيتها زائفة، لم أكن متعقلا، بل كنت أتألم ألما حادا، فنهضت وأنا أصرخ:

- لا تظني أني أكتفي بالهذر والهذيان..

ووثبت على أميلي فأمسكتها من عنقها وقلبتها على الديوان وصحت:

– قولي الحقيقة! قوليها مرة وإلى الأبد!

وكان جسمها الكبير المنسجم الذي كنت أحبه كثيرا يتخبط تحت يدي، ووجهها يحمر وينتفخ، لا شك في أنني كنت أضغط بشدة، كما لو أني كنت أود أن أقتلها. ورددت:

– قولي الحقيقة.. قولي الحقيقة!

وكررت ضغطي وأنا أفكر "سأخنقها، ولكن الأفضل أن أراها ميتة على أن تكون عدوة!"

وفجأة شعرت بأن إحدى ركبتيها كانت تسعى لأن تضربني في معدتي، وقد تمكنت فعلا بعنف شديد جدا حتى أن نفسي قد تقطع. فأرخيت ضمتي، وتحررت إميلي وهي تدفعني بقوة حتى سقطت عن الديوان. وقبل أن أتمكن من النهوض، صاحت بصوت مغيظ:

– إنني أحتقرك! هذا هو الشعور الذي أكنه لك، والسبب الذي من أجله لم أعد أحبك! إنني أحتقرك وأشمئز منك حين تلمسني.

كنت واقفا، فامتدت يدي وعيناي في وقت واحد إلى منفضة سجاير كثيفة من البلور كانت على الطاولة.

وظنت أميلي بالتأكيد أني كنت أريد قتلها، لأنها أطلقت صرخة

رعب وغطت وجهها بذراعها. ولكن ملاكي الحارس ساعدني، فلم أعرف كيف نجحت في السيطرة على نفسي، فوضعت المنفضة على الطاولة وخرجت من القاعة.

الفصل الحادي عشر

استيقظت في صباح اليوم التالي محطما حزينا وأنا أتذكر بمرارة الكلمات الثلاث التي كان النوم قد أنساني إياها "نعم إنني أحتقرك".

وكانت أميلي ما تزال نائمة في غرفة النوم، وكنت أنا متمددا على ديوان غرفة الاستقبال أتقلب طويلا في الظل وأهدهد نفسي بأن أعرف سبب احتقار أميلي، وأن التمس الوسيلة لاكتسابها من جديد. واستغرقت ثانية في النوم بعد فترة من الزمن. وفجأة استيقظت منتفضا فرأيت أميلي، جالسة عند أسفل الديوان. فبادرتني بقولها:

– اسمع، يجب أن أحدثك..

– ولكن ليس ثمة بعد ما يقال.. إنك لا تحبينني بل تحتقرينني!

فقالت بهدوء:

– كنت أريد أن أقول لك إنني عائدة اليوم بالذات إلى بيت أمي.

والواقع أني لم أكن قد تنبأت بهذا الخبر الذي كان مع ذلك منطقيا بعد ما حدث مساء الأمس، وتمتمت وأنا لا أكاد أفهم.

– تريدين أن تتركيني؟

– نعم.

فلم أجد ما أجيب به، ثم دفعني الألم الحاد الذي كان يخترقني إلى أن أعمل. فقفزت عن الديوان وصحت بصوت مرتفع:

– ولكنك لا تستطيعين أن تذهبي هكذا، إنني لا أريد ذلك!

– ولكن فكر قليلا يا ريشارد.. هذا ما نستطيع أن نفعله.

– لا أريد.. لا أريد..

– ولماذا ترفض؟ كنت منطقيا..

ولا أدري ما الذي أجبت به، ولكني ظللت أذرع القاعة، وفجأة أمسكت شعري بكلتا يدي. وكنت أحس وأنا في تلك الحالة، عاجزا عن إقناع أميلي، واستطعت بجهد أن أتمالك نفسي، وأن أعود لأجلس على الديوان، وأن أسأل، ورأسي بين يدي:

– ومتى تذهبين؟

– اليوم بالذات.

ونهضت آنذاك وخرجت من الغرفة دون أن تلوي. وهذا الذهاب الذي لم أكن كذلك أتوقعه، خلفني مشدوها. ثم لاحظت أني كنت أبكي، وعند ذلك خرجت من الغرفة.

وفي غرفة النوم، لمحت أميلي جالسة على السرير تكلم أمها. وقد لفت نظري تعبير التبرم والخيبة على وجهها. وجلست بالقرب منها. وكانت في هذه الأثناء قد علقت السماعة. فنهضت، وعيناها نحوي، من

غير أن تنظر إلي مع ذلك، وإذ ذاك تناولت يدها بتلقائية وتمتمت:

– لا تذهبي.. أرجوك.. لا تذهبي!

– اطمئن، ولا تخف.. فلن أذهب. إن أمي لا تريدني.. وقد قالت لي أنها قد أجرت غرفتي لطالب.. والحق أنها لا تحمل قراري على محمل الجد.. وتطلب مني أن أفكر.. فأنا إذن لا أدري أين أذهب. وأنا مضطرة أن أبقى معك!

وأصابتني هذه العبارة القاسية في صدقها إصابة عميقة، وأعتقد أني ارتعشت، على أني لم أستطع الامتناع عن الاحتجاج:

– ولكن لماذا تحدثيني بهذه اللهجة؟ مضطرة أن أبقى معك.. ماذا عملت لك إذن؟ لماذا تحقدين علي؟

وكان دورها الآن في البكاء، على غير رغبة منها في الظهور بهذا المظهر، وهي تخفي عينيها بيدها. وهزت رأسها وقالت:

– إنك لم تكن تريد أن أذهب.. فأنا إذن باقية..

– طبعا أريدك أن تبقي، ولكن بلا قسر، يا أميلي، بلا قسر.

فأجابت وهي تبكي:

– لست أنت الذي تقسرني، إنها الحياة.

ومرة أخرى فيما كنت آخذها بين ذراعي، أغراني الموقف أن

أسألها لماذا كفت عن حبي، ولماذا كانت تحتقرني ولكني وجدت أن اللحظة لم تكن مناسبة لأسألها، وأن أسئلتي لن تؤدي إلى شيء، وإن من الأفضل لبلوغ الحقيقة اللجوء إلى وسائل أكثر إقناعا، فقلت بهدوء:

– هيا لنوقف كل نقاش، لهذه الفترة على الأقل.. فاستمعي إلي. لقد قبلت أن أقوم بكتابة سناريو الأوديسة.. ولكن باتيستا يريد أن نقوم بذلك في خليج نابولي حيث ستؤخذ معظم المناظر الخارجية، ولهذا قررنا أن نذهب إلى كابري.. وأقسم لك إنني لن أزعجك هناك.. إن كابري مكان رائع.. وسوف ترتاحين وتسبحين في البحر وتتنزهين.. وسوف تفكرين، في المسلك الذي ستسلكينه.. إن أمك ليست على خطأ، فيجب على المرء ألا يتصرف إلا بعد التفكير الناضج.. ثم بعد شهرين أو ثلاثة، تبلغينني قرارك. وعند ذاك، عند ذاك فقط سنتناقش فيه.

وكانت ما تزال صارفة وجهها عني، كما تتجنب رؤيتي. ولكنها سألتني بصوت قد عاد إليه الاطمئنان تقريبا:

– ومتى ستذهب؟

– في غضون عشرة أيام.. بمجرد أن يعود المخرج من باريس.

– أين نسكن في كابري؟ في الفندق؟

– لا، ليس في الفندق، إن باتيستا يقدم لنا مقصورته.. وسرعان ما تخلصت من ضمتي،

وتراجعت إلى الوراء ورددت:

– مقصورة باتيستا.. وهل قبلت ذلك؟

– نعم، وكنت أظن أني حسنا أفعل.

– وسنسكن مع المخرج؟

– لا، فإن رينغولد سينزل في الفندق.

– وباتيستا، هل سيأتي؟

– أعتقد أنه سيأتي من حين لآخر. ليرى أين وصلنا في عملنا..

وصمتت هذه المرة، ثم أخرجت منديلها من جيب الروب ديشامبر وتمخطت. وفي هذه الحركة، انشق ثوبها حتى قامتها، كاشفا عن بطنها وساقيها. وإذ كنت أنظر إليها، استولت على شهوة عنيفه ذات تلقائية لا شبيه لها، أثملتني قليلا بأمل إمكان امتلاكها. وسرعان ما فهمت، وا حسرتاه، إني لن أفعل شيئا، رغم شهوتي، واكتفيت بأن أنظر إليها، خلسة تقريبا، كما لو أني كنت خجلا من نظراتي. وكنت أقول لنفسي: هذا ما وصلت إليه. أن أنظر خلسة إلى عري زوجتي. ولم يبد على أميلي أنها لاحظت حركتي، ولكنها قالت بصوت استعاد هدوءه!

– أوافق على أن أذهب إلى كابري.. ولكن بشرط.

فصحت فجأة، وقد نفد صبري:

– لا تتحدثي عن الشروط.. إننا سنذهب، هذا متفق عليه، ولكني لا أريد أن أعرف شيئا.. والآن، اذهبي، اذهبي..

ولابد أنه كان في صوتي نوع الغضب المجنون، لأنها نهضت فجأة، وهي شبه مذعورة، وغادرت القاعة على عجل.

الفصل الثاني عشر

وجاء يوم السفر إلى كابري. وكان باتيستا قد قرر أن يصحنا إلى الجزيرة، ليعرفنا على البيت. وحين هبطنا إلى الشارع، وجدنا خلف سيارتي الصغيرة – وكنت قد اشتريتها بالتقسيط أيضا – سيارة المنتج الضخمة الحمراء. وكان باتيستا واقفا قرب سيارته، وهو يتحدث إلى رينغولد.

وبعد التحيات المألوفة. سأل باتيستا:

– كيف نذهب؟

ومن غير أن ينتظر جوابا، قال:

– أقترح أن تأتي السيدة معي في سيارتي، ورينغولد في سيارتك يا مولتيني.. وهذا ما سيتيح لكما أن تتحدثا عن الفيلم في أثناء الطريق.

ونظرت إلى أميلي، فلاحظت على وجهها هذا النوع من تحلل الملامح الذي كنت قد لاحظته مرات سابقة والذي كان يعني لديها تململا واستياء. ولكني لم أعلق على ذلك أهمية، قلت وأنا أجهد في أن أبدو مرحا.

– حسنا.. حسنا.. إن أميلي ستذهب معك، ورينغولد معي.. ولكني لا أعد أن أتكلم عن السيناريو..

وتدخلت أميلي تقول:

– إنني أخشى السرعة.. وأنت يا سيدي تقود بسرعة كبيرة

ولكن باتيستا أخذها من ذراعها باندفاع وهو يصرخ:

– ولكن لا مجال للخوف معي.. إنني حريص على روحي أيضا!

وكان يجرها إلى السيارة فيما هو يتكلم. ورأيت أميلي تنظر إلي نظرة متسائلة، خائفة، وتساءلت ألا ينبغي أن أحتفظ بها معي؟ ولكني فكرت بأن من الممكن أن يجرح باتيستا من جراء ذلك، فكان إن صمت وكنت أنظر إليهما، حالما، وارتعشت لصوت رينغولد وهو يسألني:

– هل نحن مستعدان؟

فانتفضت، وصعدت بدوري، وأدرت محرك السيارة، وسمعت خلفنا هدير محرك سيارة باتيستا التي كانت تقلع، ثم تجاوزنا وابتعد بسرعة في الشارع المنحدر الضيق ثم أختفت السيارة عند المنعطف.

كنا قد اجتزنا المدينة بالسرعة المعتدلة التي كانت سيارتي تتيحها لي حين بدأ رينغولد الذي كان قد التزم الصمت حتى ذلك الحين، يقول:

– قل لي بصراحة، يا مولتيني، لقد كنت تبدو ذلك اليوم، ونحن عند باتيستا، خائفا من أن تشارك في فيلم ضخم..

فأجبت بشرود:

– وما زلت على خوفي نفسه.

– ليس أمامك ما تخافه.. فسوف نعمل فيلما بسيكولوجيا، كما سبق أن قلت لك.. فأنا لم أعتد، يا عزيزي مولتيني، أن أنطوي لرغبات المنتجين.. وأود الآن لو أعرض لك بعض أفكاري.. وأظن أنك قادر على قيادة السيارة والإصغاء إلي في وقت واحد؟

فقلت:

– طبعا!

ولكني في اللحظة التي كنت أستدير فيها نحو رينغولد انبثقت عربة يجرها جاموسان من طريق معترضة، فكان لابد من أن أتوقف توقفا عنيفا جدا، فإذا بالسيارة تنحرف إلى جانب، وترسم تعرجا مفاجئا، وتحيد في مشقة عن شجرة كانت توشك أن تصطدم بها ولكني أوقفتها في الآون. وأخذ رينغولد يضحك قائلا:

– إنك لا تستطيع، يا مولتيني، أن تقود السيارة وأن تناقشني في الأوديسة معا.. فقد السيارة إذن، ما أنا فسأتأمل هذا المنظر الرائع.

وقدت السيارة صامتا طوال ساعتين تقريبا. واجتزنا أرض المستنقعات القديمة، وهذه "سيسترنا".. ثم "تيراسينا". وبعد أن اجتزنا هذه المدينة. وكنا نمر على مقربة من البحر، فأوقفت السيارة فجأة، وقلت:

– إنني بحاجة إلى إزالة خدر ساقي.

وخرجنا من السيارة، وسلكنا زقاقا صغيرا يؤدي إلى الشاطئ.. وإذ نحن نسير ارتفع من خلفنا صوت نعرفه جيدا يقول:

– رينغولد، مولتيني. ماذا تفعلان؟ إنكما تبتردان على شاطئ البحر؟

فالتفت، ورأيت طيفي باتيستا وأميلي على إحدى الروابي المرتفعة.

وهبط باتيستا نحونا بسرعة وهو يلوح بيده على سبيل التحية. وكانت أميلي تتبعه بشكل أبطأ، وعيناها في الأرض. ويبدو عليها الاضطراب.

وناديت باتيستا، وأنا دهش:

– كنا نظنكما متقدمين علينا كثيرا.. وربما حتى "فورميا".

فأجاب باتيستا في لامبالاة:

– لقد سلكنا أطول الطرق.. وقد أردت أن أطلع زوجتك على أحد أملاكي في جوار روما حيث ابني مقصورة لي.. ثم وجدنا طريقين مسدودين..

وأخذنا باتيستا بود من ذراعينا وجرنا نحو أميلي التي كانت قد توقفت غير بعيد، على الشاطئ، وقال في تأدب بدا لي غير محتمل:

– وإذن، يا سيدتي الجميلة، عليك أن تقرري: هل نتناول الغذاء في نابولي أم في فورميا، اختاري..

فأجابت أميلي، كما لو أنها أخذت على غرة:

– قرروا ذلك فيما بينكم.. إن الأمر بالنسبة لي سواء.

– ولكن لا! إن السيدات هن اللواتي يقررن!

– إذن لنتناول الغداء في نابولي، فأنا الآن لست جائعة.

– اتفقنا.. في نابولي.. حساء السمك بالطماطم..

مما لا شك فيه أن باتيستا كان منطلق المزاج، وسأل رينغولد:

– في أية ساعة تتجه الباخرة إلى كابري؟

– في الساعة الثانية والنصف. فمن المستحسن أن نذهب.

واتجه باتيستا نحو الطريق، من غير أن ينتظر بعد. فتبعه رينغولد وهو يمشي إلى جانبه. أما أميلي، فتناولت ذراعي وقالت لي بصوت خافت:

– أريد أن أذهب الآن في سيارتك.. فحاول ألا تخالفني.

فأدهشني لهجتها العجلى، وقلت:

– ولكن، ماذا حدث؟

– لا شئ، سوى أن باتيستا يقود سيارته بأسرع مما ينبغي!

وسلكنا الممر في صمت. وإذ بلغنا الطريق أمام السيارتين الواقفتين، اتجهت أميلي بخطوة عازمة نحو سيارتي. وصاح باتيستا:

– ايه! ألا تأتي السيدة مولتيني معي؟

والتفت كان باتيستا واقفا قرب باب سيارته المفتوح، على الطريق التي تغمرها الشمس. أما رينغولد، وكان ما يزال بين السيارتين، وهو في حيرة، فكان ينظر إلينا على التوالي. فقالت أميلي في هدوء:

– أنا ذاهبة مع زوجي هذه المرة.. وسنلقي في نابولي..

وكنت أظن أن باتيستا لن يلح. ولكنه، أسرع إلينا يقول:

– ولكن، يا سيدتي، ستبقين طوال شهرين مع زوجك في كابري..

ثم أضاف بصوت منخفض، حتى لا يسمعه المخرج:

– وأنا.. لقد ضجرت في روما من صحبة رينغولد، إنه لا يتكلم إلا في السينما وليس لدى زوجك أي اعتراض على أن تأتي معي، أليس كذلك يا موليتني.

ولا أدري لأي دافع خضعت. ربما فكرت بأن عذرا تافها كهذا لم يكن يبرر إغضاب باتيستا فقلت، حتى من غير أن أفكر:

– هيا، يا أميلي.. إنك تريدين طبعا أن تسري باتيستا.. والواقع أنه على حق.. فإن المرء لا يستطيع مع رينغولد أن يتكلم إلا عن السينما!

فأكد باتيستا ذلك راضيا:

– هذا صحيح:

ثم أخذ أميلي من ذراعها، فرمتني بنظرة لم أعرف لحظتذاك كيف أصفها.

وظللت مترددا أمام سيارتي وأنا أرى باتيستا وأميلي يبتعدان.

وفيما كنت أتأملها عبرت ذهني فكرة مفاجئة: "كم أنت سخيف! ربما كانت تريد أن تبقى معك وحدها، ربما كانت رغبة في أن توضح موقفها مرة وإلى الأبد، في أن تسر إليك بشجونها.. ربما كانت تريد أن تقول لك إنها تحبك.. وها أنت تجبرها على أن تذهب مع باتيستا!"

وأحسست بحسرة مريرة ورفعت ذراعي لأناديها. ولكن الآوان كان قد فات، إذ أنها قد صعدت إلى سيارة باتيستا. وكان هذا قد اتخذ مكانه بدوره، وكان رينغولد يتجه نحوي. واستقللنا كلانا سيارتي. وفي اللحظة ذاتها، تجاوزتنا سيارة باتيستا، ثم اختفت في البعيد.

ولا شك أن رينغولد قد لاحظ تعكر مزاجي العنيف فخفض قبعته على عينيه، وما لبث أن غفى. وهكذا قدت في سكون، دافعا سرعة سيارتي المسكينة إلى الحد الأقصى، إلى أن وصلت نابولي.

الفصل الثالث عشر

لدى وصولنا إلى كابري، رافقنا رينغولد إلى الفندق، ثم توجهنا باتيستا وأميلي وأنا إلى المقصورة. ولم تكن المقصورة واسعة، فإنه بالإضافة إلى غرفة الجلوس التي كانت منفتحة على السطح، لم يكن ثمة إلا ثلاث غرف أخرى.

وكان باتيستا يتقدمنا، وهو يقوم بدوره كمالك، فشرح لنا ببعض المباهاة أنه لم يسبق له قط عاش في هذه المقصورة التي كان يمتلكها منذ عام تقريبا، وأخبرنا أن كل شئ كان معدا لوصولنا، فهناك زهور في آنية الصالون، والبلاط عاد يلمع من جديد، وحين اقتربنا من المطبخ، كانت هناك إمرأة الحارس منشغلة في الفرن، وهي تعد لنا العشاء. ثم عدنا إلى الصالون. وتحججت أميلي بأنها كانت تريد أن تغير ثيابها، وخرجت. وودت أن أحذو حذوها، ولكن باتيستا منعني من ذلك وهو يجلس على أريكة ويطلب مني أن أفعل مثله. وأشعل سيجارة، وقال لي بشكل غير منتظر، وبلا مقدمات:

– قل لي، يا مولتيني، ما هو رأيك برينغولد؟

فأجبت وقد فوجئت بعض الشئ:

– لا أدري.. إنني لا أعرفه معرفة كافية لإصدار حكم عليه.. ولكن

شعوري هو أنه إنسان رصين جدا.. وأعتبره مخرجا ممتازا..

وفكر باتيستا لحظة، ثم قال:

– اسمع يا مولتيني، أنا أيضا أعرفه قليلا، ولكني أعرف ماذا يفكر وماذا يريد.. إنه قبل كل شئ ألماني! ولئن أردت أن أضعك أنت، بجانب رينغولد، فذلك لأني أحسه مختلفا عنا كل الاختلاف.. إن لي ملء الثقة بك، يا مولتيني، وقبل أن أذهب فإني حريص على أن أقدم لك بعض التوصيات. ليكن مفهوما يا مولتيني إني أريد فيلما يروي مغامرات تملك على المشاهد دائما أنفاسه. إن هوميروس يصور لنا في الأوديسة عمالقة وعواصف وسحرة وشياطين، وأنا أريد أن تصورا لنا عمالقة وعواصف وسحرة وشياطين..

فقلت له وأنا شبه مشدوه:

– ولكننا سنريك ذلك..

فردد باتيستا بحماسة مفاجئة:

– سنريك ذلك.. سنريك ذلك.. ربما كنتما تعتبراني أبله، يا مولتيني، ولكني لست بالأبله.. فأنا أعرف موقفكما أنت ورينغولد.لقد قال لك رينغولد إنه ينبغي ألا تعذب نفسك، لأنه كان ينوي القيام بفيلم بسيكولوجي، فيلم عن الحياة الزوجية ليوليسوس وينيلوب، أليس كذلك؟

فأجبت مندهشا:

– نعم، أظن أنه قال لي شيئا من هذا القبيل..

– حسنا.. إن الأودبسة في رأيي هي شئ آخر غير الصعوبات الزوجية ليوليسوس وبينبلوب. وحين أريد أن أعمل فيلما عن الحياة الحميمة بين زوج وزوجته، آخذ رواية عصرية، وأنا لا أترك روما، بل آخذ الفيلم بين غرف النوم والاستقبال، ولا أذهب لأزعج هوميروس والأوديسة.. هل أدركت قصدي، يا مولتيني؟

– نعم، نعم. فهمت.

– إن لي حسابا، في آخر المطاف.. فأنا الذي يدفع.. وأفهم يا مولتيني أني حدثتك على هذا النحو لأتجنب كل الناس إن لي ثقة بك، وأريدك أن تكون ترجماني بالقرب من رينغولد.

– لا يساورك أي خوف يا باتيستا.. ستحصل على شاعرية هوميروس كلها.

– حسنا.. حسنا.. لا تتكلم بعد هذا.

ونهض باتيستا وهو يتمطي، وأعلن إنه ذاهب ليستعد للعشاء ثم خرج.

وظللت وحدي. ورحت أذرع الغرفة جيئة وذهابا، بآلية. كانت كلمات باتيستا قد جعلتني أحس، للمرة الأولى، بصعوبة هذا العمل الذي كنت قد قبلته بشئ من الخفة، إذ لم أر فيه إلا الحسنات المادية،

وكان يخيل لي الآن أني أستشعر مسبقا التعب والضجر اللذين لا يمكن إلا أن أحس بهما حين ينتهي السيناريو. فأحسست شعورا بالاختناق، وراودتني الرغبة في أن أتنفس بعض الهواء وقصدت الباب ففتحته، وخرجت إلى السطح..

الفصل الرابع عشر

كان الليل هابطا، وكان السطح مضاء بالضوء اللا مباشر الذي كان القمر غير الظاهر يرسله في السماء كثيفا ومن السطح كان سلم صغير يؤدي إلى الطريق الذي يحيط بالجزيرة. وترددت لحظة في هبوط هذا السلم لأذهب في نزهة، ولكن الوقت كان متأخرا، وكان الطريق مظلما. وعزمت على أن أبقى على السطح، فارتفقت الحاجز وأشعلت سيجارة.

وسرعان ما هداني هذا الليل الهادئ إلى هذا الحد، ولا أدري كم من الوقت ظللت أنظر إلى الأفق البعيد، وحين أحسستني أستعيد نشاطي أوليت البحر ظهري لأنظر إلى النوافذ.

وكان بإمكاني أرى، من زاوية السطح التي كنت جالسا فيها، ما كان يجري في الصالة، من غير أرى. وإذ رفعت نظري رأيت أميلي وباتيستا في غرفة الجلوس. وكانت أميلي واقفة قرب بار صغير متحرك وكان باتيستا منحنيا فوق البار يعد مشروبا كحوليا. وملأ قدحين، وقدم أحدهما لأميلي. وأصيبت هي برعشة كما لو أنها كانت تستيقظ من شرود عميق.

وأخيرا قدمت يدها وقالت شيئا ما. ثم اتجهت نحو بضع أرائك مصفوفة قرب المدخنة. وإذ ذاك حصل ما كنت أتوقعه في أعماقي.. فقد لحق بها باتيستا، وأحاط قامتها بذراعه، وأدنى وجهه من وجهها. وسرعان

ما احتجت بدلال، وهي تومئ بعينيها إلى القدح الذي كان بين أصابعها.

وأخذ باتيستا يضحك، وهز رأسه ثم جذبها جذبة مفاجئة، حتى أن المشروب انقلب كما كانت تخشى. وقبض على ثوبها من العنق عند الكتف، فلوى القماش، وجذبها كاشفا الكتف العارية، وعند ذلك مال برأسه ليطبع على الكتف شفتيه. وظللت هي مستقيمة جامدة، كما لو أنها كانت تنتظر في صبر أن تنتهي حركة الرجل. ثم نظرت ناحية النافذة، وشعرت بأن عيوننا تلتقي، وقامت بحركة غاضبة، وأمسكت بيدها بروتيل ثوبها المنزوع، وغادرت القاعة على عجل. وبدوري دلفت في العتمة.

أحسست فوق كل شئ بالإضطراب والذهول، باعتبار أن ما رأيته بدا لي متناقضا فاضحا مع ما كنت أعرفه وما ظننته حتى ذلك الحين. إن أميلي التي لم تكن تحبني بعد، وكانت حسب عباراتها بالذات تحتقرني، كانت تخونني إذن مع باتيستا.

لقد انقلب الوضع إذن ما بيننا، فبينما كنت متهما بغموض، أوشك أن أصبح متهما. وتذكرت أنها كانت قد رجتني مرتين ألا أدعها تسافر وحدها مع المنتج. فكيف كان يمكن لمثل هذا الموقف أن ينسجم مع تلك القبلة؟ لا شك أنه لذلك الحادث من سوابق، وعلى الأرجح كان باتيستا قد عرف أن ينتهز الفرصة الملائمة التي لم تتح له من قبل هذا المساء.

قد يقال أن اللحظة لم تكن مناسبة قط لمثل هذه الأفكار، وإنه

كان ينبغي أن أقتحم الصالة لكي أفاجئ العاشقين، ولكني كنت قد اعتدت منذ وقت أطول مما ينبغي على التفكير بسلوك أميلي تجاهي.

ثم إن ما كان يشغلني من جهة أخرى كان إلقاء الضوء على خلافنا أكثر من تخطئة أميلي. فلئن برزت فجأة في الصالة، فإني كنت أحرم نفسي نهائيا إمكانية معرفة الحقيقة وإمكانية اكتساب أميلي من جديد. كان يجب علي، بعكس ذلك، أن أتصرف بهدوء ومن غير أن أثير فضيحة وتوجهت، من غير أن أحس تقريبا إلى الباب، ففتحته ودخلت غرفة الجلوس.

كم من الوقت كنت قد بقيت على السطح بعد أن فاجأت باتيستا وأميلي؟ أطول مما كنت أظن بلا شك، لأني وجدتهما كليهما جالسين إلى المائدة وقد بلغنا منتصف الطعام. ولاحظت أن أميلي كانت قد غيرت الثوب الذي كان باتيستا قد مزقه. ولا أدري لماذا أثار هذا التفصيل اضطرابا عميقا لدي، كما لو أنه تأكيد بليغ وقاس لخيانتها.

وقال باتيستا في جذل:

– كنا نظن أنك قد ذهبت تأخذ حماما.. فأين كنت بحق الشيطان؟

فأجبت بصوت خافت:

– كنت هنا، في الخارج.

ورأيت أميلي ترفع عينيها نحوي، فتنظر إلي لحظة، ثم تخفض عينيها، فجاءني اليقين بأنها كانت قد رأتني على السطح.

الفصل الخامس عشر

وفي أثناء العشاء، ظلت أميلي صامتة، بلا أدنى ارتباك ظاهر، وقد أدهشني ذلك. أما باتيستا فلم يكن يكف عن التحدث عن نفسه. كان مقتنعا بأنه قد انتصر على أميلي فكان يتلذذ تلذذا طبيعيا في أن يتطاوس، والحق أنه ينبغي الاعتراف بأن باتيستا لم يكن أبله، وإنه فيما هو ينشر غروره الرجولي، كان يقول أغلب الأحيان أشياء هامة. مثال ذلك حين روى لنا، في نهاية العشاء، رحلته الأخيرة إلى الولايات المتحدة وزيارته لاستوديوهات هوليود بلهجة جذابة.

وانتهى الطعام بشكل غير متوقع. فبعد أن كانت أميلي أصغت بلذة إلى باتيستا، بدت وكأنها تتذكر وجودي..

ثم قالت:

– إنني ذاهبة للنوم.. فأنا متعبة.

ونهضت من غير أن تنتظر فاستأذنت وخرجت. ولم يبد على باتيستا أنه فوجئ بهذا الذهاب المباغت، بل خيل إلى أنه كان مسرورا به أما أنا فكنت أحس بضيقي يتفاقم فحييت باتيستا بدوري وخرجت.

الفصل السادس عشر

كان بين غرفتي وغرفة أميلي باب اتصال. وقد طرقت هذا الباب، دون انتظار، فقالت لي أميلي أن أدخل. كانت جالسة على السرير، جامدة في وضع تفكيري، ولكنها إذ رأتني سارعت تسألني بلهجة متعبة حانقة:

– ماذا تريد مني أيضا؟

فاقتربت منها وتناولت كرسيا جلست عليه وقلت بلا مقدمات!

– أريدك أن تقرري نهائيا إن كان ينبغي أن أكتب هذا السيناريو أم لا.. وأنا أعدك، إذا اتخذت قرارا سلبيا، أن أبلغ باتيستا صباحا هذا الأمر وسنغادر كابري في أول باخرة.

فسألت أميلي مندهشة:

– ما الذي حدث؟

– أشياء كثيرة!

– وما هي؟

كانت تلح، وكأنها كانت تريد أن أتهمها، وأن آخذ عليها خيانتها لي. ولكني ظللت على تهربي:

– أشياء متصلة بالفيلم.. أمور بيني وبين باتيستا.. وهي لا تعنيك

– ولماذا لا تريد أن تقولها لي؟

– لأنها لا تهمك إذا قلتها لك..

– بلى.. والحق أنك لن تملك الشجاعة للتخلي عن هذا السيناريو.

ولم أفهم إذا كانت تعبر في هذه الجملة عن احتقارها أو عن أملها. فسألتها بتحفظ:

– لماذا تعتقدين ذلك؟

– لأنني أعرفك.. إن الأمر يجري هكذا دائما بالنسبة لسناريوهاتك.. لقد سمعتك مرارا تؤكد أنك لم تكن تريد أن تقوم بهذا العمل أو ذاك ثم تنتهي إلى القيام به.. إن الصعوبات تذلل دائما في مثل هذه الأمور.

– نعم، ولكن الصعوبة هذه المرة لا تكن في السيناريو..

– ماذا تقصد؟

ووددت أن أصيح في وجهها: "لقد قبلك باتيستا" ولكني تمنعت وسألت:

– ألا تزالين تحسين نحوي بالشعور نفسه؟

– أنا لم أغير رأيي لأنني في كابري.. بل على العكس.

وانفعلت للألم الذي كنت أحسه، وتناولت يدها وأنا أقول:

– أما أنا فلا أفكر إلا بالخير تجاهك، وسأظل هكذا دائما..

وأضفت لتفهم إني كنت أصفح عنها:

– مهما حدث.

فلم تجب ولكنها أدارت عينيها وسحبت يدها بحركة عدائية. وإذ ذاك تركتها على التو وعدت إلى غرفتي وأنا أحس بغصة في قلبي.

الفصل السابع عشر

استيقظت صباح اليوم التالي في ساعة مبكرة، وخرجت متوجها إلى الفندق الذي كان رينغولد مقيما فيه وأنا عازم أن أنفذ الجزء الأول من خطتي (إبلاغ رينغولد أنني بعد تفكير ناضج، عدلت عن التعاون معه) وكنت قد اتخذت هذا القرار ليلة أمس بعد أن تركت أميلي.

وسألت عن المخرج، فأجابوني بأنه كان في الحديقة، وتوجهت إليها، فلمحت رينغولد جالسا بجوار طاولة صغيرة عليها بقايا طعام خفيف. ونهض رينغولد يحيني بيده.. وبعد بضع عبارات تائهة، باشرت الحديث عن السبب الرئيسي لزيارتي:

– إنني بحثت القضية بما فيه الكفاية وأتيت أبلغك نتيجة أفكاري.

– وما هذه النتيجة؟

– إنني لا أستطيع المشاركة في هذا السناريو.

– ولماذا؟

– لأنني غير موافق على تفسيرك للموضوع.

فقال بصوت غير متوقع:

– إنك إذن متفق مع باتيستا؟

وغاظني هذا الهجوم الذي لم أكن أتوقعه وقلت في غضب:

– ما شأن باتيستا هنا؟ إنني لا أتبنى وجهة نظره أكثر مما تبنيت وجهة نظرك.. ولكني أصارحك يا رينغولد أني إذا كان لي أن أختار بين الوجهتين، لفضلت باتيستا عليك.. إنني آسف.

– لقد فهمت.. ليس الفن هو غايتك يا موليتني، إن ما يعنيك هو المال. إن شيئا واحدا يهمك.. أن تقبض بأي ثمن.

فصحت محتجا بصوت قوي:

– رينغولد!

– أعذرني يا موليتني، لم أكن أفكر بما قلته!

واستطرد بعد لحظة ارتباك:

– حسنا هل أبلغت باتيستا؟

– لا. أفعل أنت ذلك.. أنا لا أعتقد أني سأرى باتيستا من جديد.

– إنني آسف جدا ألا تكون معاوني يا موليتني.

– سيكون ذلك لمرة أخرى.. أنا أيضا كنت أتمنى أن أعمل معك.

– ولكن، لماذا إذن، يا موليتني؟

فقلت باسما وأنا أشد على يده:

– القدر.

وابتعدت. وبقى هو أمام الطاولة حائرا كما لو أنه يتساءل عن السبب.

الفصل الثامن عشر

كانت عجلتي للعودة إلى البيت مثلها في مغادرته والحق أني لم أكن أفكر في شئ وأنا أعدو تحت الشمس المحرقة، ولكني كنت أحس أنه قد وضع أخيرا حد لجمود وضع طال أكثر مما ينبغي، وإني عما قليل سأعرف لماذا كانت أميلي قد كفت عن حبي.

وإذا بلغت المقصورة رقيت ركضا السلم المؤدي إلى السطح ودخلت غرفة الجلوس. وكانت خالية، ولكن مجلة مفتوحة على أريكة، وأعقاب سجائر محمرة في المنفضة والراديو الذي كانت تنبعث منه موسيقى راقصة خافتة، كل ذلك كان يشهد بأن أميلي كانت حاضرة منذ لحظات.

وتوقفت عند المظهر الهادئ الفاره الأليف لغرفة الجلوس هذه. فكأننا كنا نسكن هذا البيت منذ أشهر، وكأن أميلي كانت قد اتخذت فيه عاداتها كما لو أنه بيت نهائي. وإذن، فقد كانت، رغم الظروف والأحداث تهئ نفسها لإقامة طويلة سعيدة أن تكون في بيت باتيستا.

واتجهت مهموما إلى غرفة أميلي وفتحت الباب ولم يكن فيه أحد. وخرجت من الغرفة، وتوجهت عبر ممر صغير نحو المطبخ وعلى العتبة، سمعت صوت أميلي التي كانت تتحدث إلى الطباخة.

وتقدمت نحو العتبة وناديت:

- أميلي!

فالتفت، وسألت:

- ماذا تريد؟

- إني أريد التحدث إليك.

- انتظرني في الصالة.. إن لدي عملا ولكني آتية على الفور.

وعدت إلى الصالة فجلست عل إحدى الأرائك وجعلت انتظر. وكانت فكرة تقلقني. لقد كانت أميلي بحسب الظواهر سعيدة بهذه الإقامة.

وهذا يعني أن الوضع غير المحتمل الذي كانت تثور عليه من قبل كانت تقبله الآن. ولكن هذا القبول كان أكثر إهانة لي من كل ثورة وتمرد، إذ هو لديها علامة سقوط، علامة انهيار.

ودخلت أميلي، وجلست:

- كنت تريد أن تحدثني؟

فأجبتها.

- هل أفرغت حقائبك؟

- نعم، لماذا؟

– إنني آسف.. ستكونين مضطرة إلى ملئها من جديد.. فغدا صباحا سنعود إلى روما.

فلم تتحرك، كما لو أنها لم تفهم. ولكنها سألت بصوت خشن:

– ولكن ماذا حدث من جديد؟

فأجبت وأنا أنهض لأغلق الباب المطل على الممر:

– حدث أني عزمت على ألا أكتب السيناريو.. لقد تخليت عنه..

فطرحت علي سؤالا لم أكن أتوقعه:

– وهل علم باتيستا بالأمر؟

فأجبت:

– إنه لا يعلم شيئا، ولكني ذهبت إلى رينغولد وأخبرته.

– لقد أسأت التصرف كثيرا!

– لماذا؟

فقالت بلهجة قاسية وغير واثقة:

– لقد كنا بحاجة إلى هذا المال لندفع أقساط الشقة.. ومن جهة أخرى، قلت لي أنت نفسك أكثر من مرة إن التخلي عن عقد ما يعني إغلاق الباب دون أعمال آتية.. لقد أسأت التصرف.. وما كان ينبغي لك.

وأغتظت بدوري، فصحت:

– ألا تدركين أن وضعي لم يعد يحتمل، وإني لا أستطيع بعد أن أتلقى مالا من رجل.. يحاول أن يغوي زوجتي؟

فلم تجب أميلي. واستطردت:

– إنني أرفض السيناريو لأني إذا قبلته، في الظروف الحالية، كنت مفتقرا إلى الكرامة.. ولكني أرفضه كذلك من أجلك، بسببك، لكي تعيدي النظر في حكمك علي.

ورأيت شعاعا معاديا وساخرا يعبر عينيها:

– إنك تقوم بعمل غير مجد.. وهذا لن يفيد إلا في الإساءة إليك.

وبحركة شبه آلية كانت تخفي اضطرابي، مددت يدي لآخذ يدها.

– أميلي.. أأنت التي تقولين لي ذلك؟

فسحبت يدها بسرعة:

– أرجوك.. لا تلمسني.. إنني لا أحبك ولن يكون ممكنا أن أحبك.

فسحبت يدي، وقلت وقد جرحت جرحا عميقا وقلت:

– لا نتحدث عن حبنا.. أنت على حق، ولكن لنتحدث عن.. احتقارك.. وإذن، فحتى إذا رفضت هذا السيناريو، ستظلين على احتقارك لي؟

فنهضت فجأة، كأنها فريسة ألم مفاجئ:

- نعم، سأظل.. ثم دعني وشأني..

- ولكن لهذا الاحتقار سببا، على ما أظن..

- إن ما أعرفه أنك لست رجلا.. إنك لا تتصرف كالرجال

الفصل التاسع عشر

كانت قد اتجهت إلى النافذة وأولتني ظهرها وهي تحدثني. وأخذت رأسي بين يدي، ونظرت إليها لحظة، وأنا يائس. لكنها لم تكن توليني ظهرها وحده، بل روحها كلها.

وانبثق في أعماقي ضوء مفاجئ.. "وما يدريني أن أميلي قد أحست بأني منذ بضعة أشهر قد لاحظت أن باتيستا يغازلها؟.. ما يدريني أن تكون قد أعتقدت أني كنت أحاول أن أستغل الفرصة.. وأني بدلا من أن أثور، بالإجمال، كنت أشجع بدافع من المصلحة، مقاصد باتيستا".

كان جديرا بمثل هذه الفكرة أن تقطع نفسي، لأني في الوقت نفسه كنت أتذكر بعض أحداث ملتبسة كان يمكن أن تثبت شكي.. منها على سبيل المثال، في ذلك المساء الأول الذي خرجنا فيه مع باتيستا، تأخري المعزو إلى حادث اصطدام، ولكنها استطاعت أن تنسبه إلى حساب دقيق من جانبي لكي أتركها وحدها مع المنتج.

وقالت اميلي فجأة، كما لتؤكد أفكاري، من غير أن تلتفت إلي:

– إن الرجل لا يتصرف كما تصرفت أنت مساء أمس، بعد أن رأيت ما رأيت.. أما أنت، فقد جئت بكل لطافة تسألني رأيي، كما لو أن شيئا لم يكن.. وعلى أي حال، لقد فات الآوان.. لقد كونت فكرتي

عنك، وبإمكانك أن ترفض جميع سيناريوهات العالم، فلن أغير هذه الفكرة..

هكذا كنا ندور دائما في الدائرة نفسها: كانت تحتقرني ولكنها كانت ترفض أن تدلي بالسبب.

– إسمعي يا أميلي، أنك تحتقرينني ولا تريدين أن تقولي لي لماذا؟ إذن سأقول أنا لك لماذا.. لقد تصورت، معتمدة على مظاهر خادعة، إنني.. لم أكن أجهل شيئا عن باتيستا.. وإني كنت، بدافع المصلحة، أفضل أن أغمض عيني، أو حتى أن أدفعه بين ذراعيك.. أليس كذلك؟

ورفعت عيني عليها، منتظرا جوابها، ولكن هذا الجواب لم يأت. كانت أميلي صامتة، وعيناها تحدقان بشئ ما فيها وراء النوافذ. وأحسستني فجأة أحمر حتى الأذنين، خجلا مما قلت، وعجلت أضيف، متأسفا:

– ولكن هذا غير صحيح يا اميلي، فأنت مخطئة، فحتى الأمس، لم أكن أعرف شيئا من سلوك باتيستا وأنت حرة طبعا في أن تصدقيني.

ونهضت لآخذ أميلي من ذراعها فلاحظت أنها كانت تصرف وجهها عني، ولكنها تركتني أشد على ذراعها، وحين تقدمت ولمس جنبي خاصرتها، لم تتراجع. وإذ ذاك تشجعت وأخذتها من قامتها، فقالت بصوت مرتفع:

– لن أغفر لك أبدا. أبدا لن أغفر لك أنك هدمت حبنا.. لقد كنت أحبك كثيرا، ولم أحب أحدا سواك.. ولن أحب شخصا آخر أبدا.. ولكنك هدمت بتصرفك كل شئ.. كان بإمكاننا أن نكون سعيدين جدا معا.. أما الآن فكل شئ مستحيل.

ولا أدري أي أمل تحرك في نفسي.. إنها رغم كل شئ تقول بأنها سبق أن أحبتني، وإني كنت حبها الوحيد.. وتمتمت وأنا أشدها بلطف إلي:

– اسمعي، إنك ستملأين الحقائب وسنسافر غدا صباحا.. وفي روما سأشرح لك كل شئ، وسوف تقنعين، أنا واثق من ذلك.

وتحررت من ضمتي هذه المرة، مما يشبه العنف، وصاحت:

– لن أذهب! ماذا تريدني أن أفعل في روما؟ يجب علي أن أترك البيت، وما دامت أمي لا تريدني، فعلي أن أذهب لأعيش في غرفة صغيرة، وأن أعود لممارسة الضرب على الآلة الكاتبة.. لا، لا.. إنني لست ذاهبة.. إنني بحاجة إلى الهدوء والراحة، فاذهب أنت إذا شئت، أما أنا، فباقية.. وقد قال لي باتيستا أن بإمكاني أن أبقى هنا ما شئت..

وغضبت بدوري فقلت:

– بل ستذهبين معي، صباح الغد..

– أنت على خطأ يا صديقي العزيز، فأنا باقية هنا..

– إذا كان الأمر كذلك، فأنا باق أيضا، وسأتصرف على نحو يحمل باتيستا على طردنا كلينا..

فرمقتني لحظة، ثم غادرت غرفة الجلوس من غير أن تقول كلمة.

الفصل العشرون

وأخذت أذرع الصالة جيئة وذهابا وأنا فريسة اضطراب مفاجئ قلق، وأخيرا قصدت غرفتي وأغلقت الباب بالمفتاح ثم أغلقت المصاريع فساد الظلام، وارتميت على سريري.كنت متعبا حقا ولم البث طويلا حتى سقطت في نوم عميق.

نمت نوما ثقيلا، من غير أحلام، ثم استيقظت. ونهضت فذهبت أفتح النافذة كان الليل قد هبط، وأضأت النور ونظرت إلى ساعتي كانت الساعة التاسعة. وكنت أعلم أن موعد العشاء هو في الثامنة والنصف. وبسرعة رتبت مظهري وغادرت غرفتي.

ولكن قاعة الجلوس كانت فارغة، وما لبثت الخادمة أن ظهرت وأخبرتني أن باتيستا وأميلي قد خرجا لتناول العشاء في كابري، وأن بوسعي أن ألحق بهما إذا شئت، في مطعم "بيلافستا". وإلا فبوسعي أن أتناول العشاء في البيت.

ولم أحس هذه المرة حسدا ولا غضبا ولا خيبة، وفكرت ببعض الأسى أنهما كانا قد قاما بالشئ الوحيد الذي يمكن القيام به، ولم يكن بإمكاني ألا أن أقابلهما بالعرفان إنهما جنباني لقاء مزعجا. ولهذا قلت للخادمة إنني سأتناول العشاء في البيت، وأن بوسعها أن تقدمه لي، ثم جلست إلى المائدة.

وأكلت من أطراف شفتي، بلا قابلية، وبعد بضع دقائق قلت للخادمة إني ذاهب لأنام وإني لست بعد بحاجة إليها. ثم خرجت إلى السطح.

كانت ثمة بضع مقاعد طويلة مجمعة في ركن، فأدنيت إحداها من الحاجز وتمددت عليها تجاه البحر ألتمس بعض الهدوء.

وبعد مضي من الوقت سمعت ضجة أصوات هادئة كانت تبدو صادرة من الممر القائم تحت السطح، فعرفت صوتي أميلي وباتيستا. وسارعت أدخل غرفتي وأغلق دوني الباب. ولكني لم أكن أحس بالنعاس، وكان يبدو لي أني سأتألم أكثر مما ينبغي في تلك القاعة الخانقة وأنا أشعر بحضور الآخرين غير بعيد عني.

وكنت قد جلبت من روما منوما شديد الفعالية، لأني كنت أعاني الأرق منذ حين، فتناولت منه ضعف الكمية المعتادة، وارتميت وأنا في ثيابي على السرير، وقلبي طافح بالغضب. ولابد إني نمت على الفور تقريبا، لأني لا أذكر إني سمعت صوتي أميلي وباتيستا أكثر من بضع دقائق.

الفصل الحادي والعشرون

استيقظت متأخرا، فقد كانت أشعة الشمس تنفذ من خلال الشباك، وراعني الصمت العميق الذي كان يختلف اختلافا كبيرا عن صمت الأمس فقفزت من السرير متجها إلى الباب المتصل بغرفة أميلي، وإذ فتحته، كان أول شئ لفت رسالة موضوعة على الوسادة، في وسط السرير الكبير الخالي. وكانت موجزة:

"عزيزي ريشار..

ما دمت لا تريد الذهاب، فأنا التي أذهب، ولو كنت وحدي، لربما لو أمتلك الشجاعة للقيام بذلك، ولهذا أنتهز فرصة ذهاب باتيستا. والحق أني سأخشى أن أبقى وحدي، ويبدو لي أن رفقته مفضلة لدي بعد كل حساب، على الوحدة. ولكني حين أبلغ روما، سأتركه يذهب لشأنه، وأمضي لأعيش عيشتي. بيد أنك ينبغي أن لا تدهش إذا علمت أني أصبحت عشيقته فلست من خشب، وهذا سيعني خصوصا أن الشجاعة قد خانتني.. وداعا – أميلي".

حين فرغت من قراءة هذه الأسطر، جلست على السرير والرسالة في يدي، وعيناي تائهتان في الفراغ. كنت أحس أني في دوار، وكأن ضربة قاصمة قد نزلت بي. وفيما كنت أراقب ألمي الهاجع، من غير رغبة

مني في الإلحاح عليه خشية إيقاظه، تناولت آليا ثوب السباحة، وخرجت من المقصورة إلى ساحة كابري.

وهناك جلست في مقهى، كنت كمن لا يحس شيئا، أشبه بالذبابة التي نزع طفل قاس رأسها، فظلت بالرغم من ذلك، تتنزه بضع لحظات وتنظف أقدامها قبل أن تنقض فتموت. وأخيرا آذن الظهر، فملأت ساعة البرج الساحة بضجيج دقاتها الأثنتى عشرة. وكان أوتوبيس يهم بالانطلاق باتجاه شاطئ بيكولا مارينا، فصعدت إليه.

وبعد بضع دقائق كنت أهبط السلم المؤدي إلى الحمامات، وإذ بلغت الحمام، ناديت خادما وطلبت إليه أن يعد لي قاربا. ثم ذهبت أنزع ثيابي في إحدى الغرف.

وخرجت أمشي بقدمين عاريتين خافض العينين، حذرا من أن أجرح قدمي بنتوءات الشاطئ المملح، ولم أرفع عيني إلا حين بلغت الشاطئ تقريبا، وإذ ذاك رأيت.. أميلي.

وكان خادم الحمام قد وقف أمام القارب الذي كان قد أنزل نصفه إلى الماء، وكانت أميلي جالسة في مؤخرة القارب، مرتدية ثوبا من البكيني وقد بسمت لي أمام انشداهي، ونظرت إلي بتحد وكأنها تقول لي:

– "نعم، هذه أنا.. لا تقل شيئا.. ولا يبدي عليك الاندهاش!"

وقفزت إلى القارب، وأنا صامت، وجلست فتناولت المجذافين وأخذت أجذف، خافض الرأس، تحت الشمس المحرقة، في اتجاه الرأس الذي يغلق الخليج الصغير. وبلغته في عشر دقائق، من غير أن أنبس بكلمة، أو أرفع نظري نحو زوجتي.

ولكن فيما كنت أجذف، أحسست دفعة جديدة من المرارة ممزوجة بفرح جديد وغريب، فاخضلت عيناي بالدموع. وإذ بلغت الرأس. رفعت عيني نحو أميلي، فابتسمت لي وسألتني بصوت عذب:

– لماذا تبكي؟

– أبكي فرحا لرؤيتك.

– أيسرك هذا إلى هذا الحد إذن؟

– نعم.. نعم.. كنت أحسب أنك قد ذهبت.. وها أنت بقيت!

فخفضت عينيها وهي تقول:

– كنت قد عزمت على الذهاب.. وهذا الصباح هبطت إلى الميناء مع باتيستا.. وفي اللحظة الأخيرة، غيرت رأيي، فبقيت..

– وما الذي فعلته منذ ذلك الحين؟

– لقد تهت عبر الميناء..وجلست في مقهى، ثم عدت إلى كابري بالمصعد الكهربائي واتصلت بالمقصورة، فقيل لي أنك قد خرجت.. وفكرت في أنك ذهبت إلى بيكولا مارينا، فجئت ألحق بك.. وقد نزعت ثيابي

وأنتظرتك.. وفيما كنت تطلب قاربا، تمددت في الشمس.. ولكنك مررت إلى جانبي من غير أن تراني.. وبينما كنت تنزع ثيابك، صعدت إلى القارب.

لزمت الصمت لحظة. وسألتها بصوت منخفض:

– ولماذا لم تذهبي مع باتيستا، خلافا لقرارك؟ لماذا بقيت؟

– لأني فكرت هذا الصباح، فأدركت أني أخطأت تجاهك.. وأن كل شئ لم يكن إلا سوء تفاهم..

– وما الذي جعلك تفكرين بهذا؟

– لا أدري.. بما كانت لهجة صوتك مساء أمس..

– والآن، هل اقتنعت حقا بأني لم أرتكب قط الأعمال الرديئة التي كنت تتهمينني بها؟

– مقتنعة تمام الإقتناع..

فلم أضف شيئا وأخذت أجذف، وبلغنا "المغارة الخضراء".

وهناك جرؤت على سؤالها:

– هل تحبينني؟

فترددت، ثم أجابت بلهجة أسى:

– لقد أحببتك دائما وسأحبك أبدا..

فألححت وقد أخافتني تلك اللهجة:

– لماذا تقولين ذلك بهذه اللهجة الحزينة؟

– لا أدري.. لعله كان يكون أروع لو لم يفصلنا أي سوء تفاهم.. لو ظللنا نتبادل الحب كالسابق.

قالت: – نعم، ولكن كل شئ قد انتهى منذ الآن، ولا ينبغي التفكير فيه بعد.. إننا الآن يحب أحدنا الآخر إلى الأبد..

فبدت موافقة بحركة من رأسها، ولكن من غير أن ترفع عينيها، ما تزال حزينة بعض الشئ. وتركت المجذافين، وملت عليها أقول:

– لنذهب إلى المغارة الحمراء، إنها مغارة أصغر وأعمق تقوم خلف هذه.. وفي داخلها يقوم شاطئ صغير، في الظلام.. وسنتبادل هناك الحب، أتريدين؟

فهزت برأسها إيجابا، وهي صامتة، وظلت تحدق بي تحديق تواطؤ خفي معتكر. ثم أخذت المجاذيف. وبلغنا المغارة التي كانت شبكة متحركة من ألف لون ولون تنعكس تحت قبتها، وكان الممر الذي يفضي إلى "المغارة الحمراء" ينفتح بين صخرتين كأنه شباك مضئ. واستعنت بالمجاذيف على جدران الممر، فوجهت القارب نحو الرواق المؤدي إلى "المغارة الحمرء". وقلت لأميلي:

– تنبهي لرأسك..

وبضربة مجذاف واحدة دفعت القارب إلى المياه الهادئة، داخل المغارة.

الفصل الثاني والعشرون

وكان الظلام شبه تام، وكانت العيون بحاجة إلى أن تألفه قبل أن ترى الحصباء الصغيرة الملونة تحت الأرض بذلك النور المحمر الذي أعطى إسمه المغارة. وقلت:

– إن الظلام شديد حقا ولكن حين يزول ابهار عيوننا، فسنرى بوضوح. أعطيني يدك، فسأساعدك على الهبوط.

فلم أتلق جوابا. ورددت مندهشا:

– أعطيني يدك، يا أميلي.

وإذ ظلت على صمتها، ملت أكثر من ذي قبل، على حذر، حتى أتحاشى صدمها، ورحت أتلمس موضعها. فلم تعثر يدي إلا على الفراغ. وامتزج الخوف فجأة بذهولي فصحت:

– اميلي.. اميلي!

فأجابني صدى مثلوج فقط. وفي تلك الأثناء، كانت عيناي قد اعتادتا الظلام وبدأتا تميزان في الظل الكثيف ورأيت آنذاك أن القارب كان فارغا، والشاطئ خاليا، وأنه لم يكن حولي أحد: كنت وحدي.

وظلت عيناي مشدودتين على مؤخرة القارب، وأنا أنادي مذهولا.

– أميلي.. أميل.. أين أنت؟

وفجأة فهمت.. فخرجت من القارب وارتميت على الأرض، دافنا وجهي في الحصى المبتل ولابد أنه قد أغمى علي، ذلك أني ظللت جامدا، محروما من الإحساس، فترة بدت لي غيرة قابلة للإنتهاء.

ونهضت فيما بعد، فصعدت إلى القارب بصورة آلية، ودفعته إلى خارج المغارة. وحين غادرته، بهرني نور الشمس الحاد الذي كان البحر يعكسه. ونظرت إلى الساعة في معصمي: كانت الثانية بعد الظهر. وإذن. فقد بقيت في المغارة أكثر من ساعة، وتذكرت أن الظهر. هو ساعة الأطياف.. فعلمت إني إنما تكلمت وبكيت أمام طيف.

الفصل الثالث والعشرون

ووصلت أخيرا إلى الحمام، فارتديت ثيابي على عجل، وصعدت إلى الساحة وقفزت توا إلى باص كان متوجها نحو كابري. كنت مستعجلا إلى البيت لأنه كان على بعد أن أتناول الغذاء وأرتب حقيبتي قبل أن أذهب في باخرة الساعة السادسة، وكان الوقت ضيقا.

وفي المقصورة كانت تنتظرني برقية من باتيستا يبلغني، ببضع كلمات، أن أميلي كانت في حالة خطرة، إثر حادث اصطدام مشؤوم.

إني ألاحظ، وقد بلغت هذه النقطة من قصتي، أن ليس لدي بعد شئ أضيفه تقريبا. ومن نافلة القول أن أروي كيف سافرت بعد الظهر، وكيف علمت لدى بلوغي نابولي أن أميلي قد ماتت. وقد حدثت الوفاة في ظروف غريبة. فقد قيل لي أن أميلي كانت قد استسلمت للنوم، تحت تأثير الحرارة والتعب، فانحنى رأسها وذقنها على صدرها.

وكان باتيستا، على عادته، يقود بسرعة كبيرة، وفجأة برزت عربة يجرها جاموسان من طريق معترضة، فأوقف باتيستا سيارته إيقافا عنيفا وقد فاجأت ضربة الفرامل جسمها وهو في حالة استرخاء كامل.

وقد أحدثت الصدمة الناشئة عن توقف السيارة انكسار العمود الفقري لدى زوجتي. وقد ماتت من غير أن تشعر بذلك.

وجرت الجنازة في جو خانق، تحت سماء ملبدة. وحين انتهت الشكليات في المساء، أغلقت الباب خلفي ودخلت شقتنا التي ستكون فارغة بعد الآن ولا مجدية، وأدركت أخيرا أن أميلي قد ماتت وإني لن أراها بعد أبدا. وكنت أصبح مجنونا لدى التفكير بأن موت أميلي ربما كان مظهرا نهائيا من مظاهر العداء إزائي.

ولكن الحياة كانت هنا، وكان لابد من قبولها. وقد تناولت حقيبتي من جديد، ولم يكن قد أتيح لي بعد أن أفتحها، وأغلقت الباب وأعطيت مفاتيحه إلى البوابة وأنا أعبر لها عن رغبتي في بيع البيت لدى عودتي من رحلتي. ثم انطلقت ثانية إلى كابري لأكتب هذه الذكريات.

الفهرس